٨٣، والادريسى ١٣١ وابن الفقيه ص ٥٧٢ أن حد مصر من مدينة برقة الى عقبة أيله ٤٠ يوما .

وقد اعتمدت شخصيا هذا التحديد فيما يخص فتح العرب لمصر ، فاعتبرت فتح برقة الأول على يد العرب تتمة طبيعية لفتح مصر بحسب العرف الادارى البيزنطى الذى كان قد دام عدة قرون عندما جاء الاسلام .

وقد ذكر ابن خلدون أن مثل هذا التحديد كان عرفا جاريا فى عصره فقال ص ١٠١ : والعرف الجارى لهذا العهد . . . لا يدخل فى المغرب اقليم مصر ولا برقة وانما يختص المغرب بطرابلس وما وراءها ، ويذكر السلاوى ص ٣ مثل ذلك .

٤ — ولدينا أيضا تحديد فعلى مستمد من روايات المؤرخين للحوادث التاريخية . فان تتبع أخبار الخوارج فى القرن الثانى للهجرة فى افريقية يدل على ان سرت كانت آخر حامية طرابلسية ، ومعنى هذا ان ما وراءها شرقا يتبع برقة أو على الأقل أن سرت مفتاح طرابلس . ونجد كذلك فى خبر خروج العباس بن احمد بن طولون على أبيه أن آخر حصن لأبن الاغلب كان لبدة حيث كان يوجد عامل لابن الأغلب . وتدلنا أخبار الفتوحات على أن قصور حسان كانت من حيز برقة .

لفظ المغرب :

ويرد لفظ المغرب دائما فى العبارات التى تتعرض لتحديد عمل مصر أى اختصاصها الادارى أو عند تحديد برقة من جهة الغرب . ونلاحظ عندما نريد استخلاص حدود المغرب من النصوص أننا أمام قاعدة هى : ان ما عدا مصر هو المغرب كما كان ما عدا مصر هو قارة ليبيا . وعلى هذا اختلفت حدود المغرب من جهة مصر باختلاف عمل مصر الادارى بحسب التقاليد الادارية . فيكون حد المغرب مرة عند ذات الحمام، ومرة غربى مراقية، ومرة عند غربى برقة . ولا يبعد قط ابتداء المغرب عن ذلك .

والخلاصة ان اسم ليبيا ورد عند العرب كاسم قارة ولم يطلق قط على برقة وطرابلس طول العصور الاسلامية السابقة ولا على بحيرة شط الجريد وانما اطلق على كورة وجبال وصحراء، ولكن الاسم قديم أصيل لا يعرف أوله، ثم اطلق على برقة وطرابلس فعلا منذ قيام اقليم افريقية وابتداء السيادة الرومانية (حول ١٤٦ ق م) ثم حل لفظ المغرب عند كتاب اللغة العربية محل اسم ليبيا تماما . ومع ذلك فان قدم الاسم وأصالته وسرعة قبوله اليوم يجعلنا نرجو أن يكون الاسم القديم المبعوث بشيراً بنهضة ثابتة الدعائم وان يكون الاسم موضع الترحيب .

محمد عبد الهادى شعيرة
استاذ التاريخ الاسلامى بالجامعة الليبية
وجامعة عين شمس
بنغازى

الآمدي وكتابه الموازنة

للدكتور طه الحاجرى

— ١ —

قلت فى مقدمة الجزء الأول من كتابى «فى تاريخ النقد والمذاهب الأدبية» ان «النقد الأدبى أكثر وجوه النشاط العقلى تأثرا بسائرها، وتعبيرا عن اتجاهاتها، وجريا مع تياراتها المتباينة، حتى لنستطيع القول — فى غير مبالغة ولا تجاوز لحدود التقدير العلمى — اننا نملك — اذا أتيحت لنا مجموعة هذا النقد مكتملة منتظمة منسقة — أن نتعرف فيها أصداء جميع ما أتيح للعقل الاسلامى والجماعة الاسلامية، من تغيير وتطور، ومن تبدل وتحول، واضحة جلية» .

وهذا قول عام يصدق — فيما نرى — على النقد الأدبى عامة، لا يختص به عصر دون عصر، ولا بيئة دون بيئة، ولا أمة دون أخرى[1]، اذ كانت الأسباب المفضية الى هذه النتيجة أسبابا عامة، على النحو الذى بيناه هنالك. فليس يتوجه على هذه القضية العامة أن يكون لعصر من العصور بعض الخصائص التى يبدو أنها تبعد به عن الاندراج تحتها والوقوع فى حكمها، كالذى يمكن أن يقال عن القرن الرابع الذى نؤرخ هنا لبعض وجوه النقد الأدبى فيه، اذ ندرس الآمدى فى كتابه الموازنة ، من انه عصر التخصص، وانه بذلك يختلف عن العصور السابقة التى كانت وجوه النشاط العقلى فيها اكثر تجاوبا، وأظهر تداخلا، وأوثق اتصالا، مما كان أعون على تحقيق تلك الظاهرة، أما هو فان الحياة العلمية أخذت فيه طابعا جديدا، اذ برزت فيه تلك الظاهرة التى كانت تتكون من قبل شيئا فشيئا، وهى ظاهرة التخصص العلمى،

(١) انظر ما قاله Fernand Baldensperger بالقياس الى تاريخ النقد الأدبى فى فرنسا فى كتابه :
La critique et l'histoire litteraires en France ... etc. p. 13

فقدجعلت العلوم ووجوه النشاط العقلى عامةتتمايز بصورةواضحة، وجعلت الصلات بينها تضعف وتتراخى .

وهذه الصفة من صفات الحياة العلمية فى القرن الرابع حقيقة مسلمة لا جدال فيها، ولكنها مع ذلك لا تذهب الى حد ابطال تلك القضية العامة بحق الأصول التى قامت عليها، اذ كانتاصولا ثابتة ترجع الى حقيقة النقد الأدبى فى ذاته. وبذلك ظل النقد الأدبى فى هذا القرن محتفظا بتلك الظاهرة التى لازمته فى مراحله الأولى ، واستطاع أن يبقى على صلاته بالاتجاهات العلمية المختلفة ، وأن يظل موضعا للانطباعات الصادرة عن هذه الاتجاهات يردد أصداءها ويحمل سماتها ، اذ كان انما يصدر فى ذلك عن تلك الأصول الثابتة والعلاقات الذاتية التى تربط بينه وبين وجوه النشاط العقلى، على النحو الذى بيناه وسواء فى ذلك أن تتمايز هذه الوجوه وتتزايل، أم تتقارب وتتداخل .

والى جانب ظاهرة التخصص العلمى هذه التى تجلت فى القرن الرابع، ولم تحل — كما ذهبنا — بين النقد الأدبى وبين طواعيته للانطباعات المختلفة، كانت هنالك ظاهرة أخرى تشاركها فى الدلالة على نضج الحياة العقلية، واكتمال أسلوب الدرس العلمى، وكان لها أثرها الواضح فى المنهج العام للنقد الأدبى فى هذا القرن، وهى ظاهرة «التجريد»، اذا جازت لنا هذه التسمية، ونعنى بها انتقال النشاط العلمى من دائرة الجزئيات المتفرقة المنتشرة، الى دائرة الكليات المجتمعة المؤتلفة، أو من النظرة الجزئية المحدودة، الى النظرة العامة الشاملة، تتعمق الأصول العامة والمبادى الكلية، وتتحرى فى ذلك العلاقات التى تراها آصل العلاقات، وبذلك تضع العلم فى نسق واحد منتظم، يضم اطرافه ويجمع متفرقه .

ولم يشذالنقد الأدبىفى القرنالرابع، فى جملته،عن هذه الظاهرة العامة،فوضحت فيه الصورة العلمية، اذ لم يعد أحكاما جزئية متفرقة، أو ملاحظات شخصية مفردة، وانما أصبح دراسات عميقة متصلة مجتمعة، يتجه كل منها الى غرض بعينه . ويصطنع كل منها منهجا مرسوما بين الحدود وينطبع كل منها بطابع واحد معين ، بحيث تكون كل دراسة من هذه الدراسات وحدة منسقة مؤتلفة الاجزاء، لها موضوعها وغرضها وأسلوبها .

وبذلك، وبما أتيح للحياة الأدبية عامة فى هذا القرن من عوامل جديدة ليس هذا موضع درسها ، يعتبر القرن الرابع من التواريخ الحاسمة فى تاريخ النقد الأدبى ، كما يعتبر من أحفل مراحل الحياة الأدبية بمظاهر النشاط النقدى، والاتجاهات المختلفة فيه .

واذ لم يكن من شأننا فى هذا البحث أن نتتبع هذه الاتجاهات ونستقصيها ونتعرف خصائصها وسماتها ، فانه يكفينا من ذلك، تمهيدا لما نحن بصدده، أن نعرف فيها انماطا ثلاثة كبرى، لكل نمط منها منهجه وطابعه وغايته ، كما يعبر كل منها عن نزعة عقلية خاصة ، ويتجاوب بأصداء بيئة علمية معينة .

أما النمط الأول فهو النقد الأدبى بمعناه الخاص : يهدف الى غرض أدبى خالص ، ويتقوم بموضوعات أدبية ، ويصدر عن دوافع أدبية ،كما يصطنع أسلوبا أدبيا، يثير الذوق الفنى ، ويعتمد على الحس البيانى .

والثانى نقد أدبى فى موضوعه ، ولكنه يختلف عن سابقه فى اسلوبه ومنهجه ، اذ يتجه أول ما يتجه من ذلك الي اصطناع الأسلوب العلمي فى الترتيب والتبويب ، والتصنيف والتعريف ، والتقدير والتحرير ، والي استنباط القوانين ووضع القواعد، وتقريرها بالأمثلة والشواهد ، كما يصدر — اكثر ما يصدر — عن تلك النزعة العلمية أو التعليمية التى ترمى الى جمع الأشباه والنظائر ، وبيان الصلات التى تصلها والعلاقات التى تربط بينها ، وتحرى ما قد يكون من فروق واختلافات تفرق بين الواحد منها والآخر .

وأما النمط الثالث فهو نقد أدبى أيضا فى أسلوبه ومنهجه وجملة موضوعاته ، ولكنه يصدر عن نزعة غير تلك النزعة، ويتجه الى غاية غير تلك الغاية، اذ كان يصدر عن النزعة الدينية المرتبطة منذ أول أمرها بالنزعة الأدبية ، ويتجه الى اثبات الحجة الخالدة للاسلام ، وهى اعجاز القرآن ، مظهر ذلك الارتباط . أما فيما بعد ذلك فله أسلوبه الأدبى فيما يعالج من مسائل تلك القضية ، الى جانب ما يعرض له فى أثناء هذه الدراسة من قضايا التعبير الأدبى .

هذه هى الانماط الثلاثة الكبرى للنقد الأدبى فى القرن الرابع، وفيها نستطيع أن تتبين اتجاهات النقد الرئيسية ومدى نشاطه فى هذا القرن .

وسنحاول فى هذا البحث أن نتعرف واحدا من هذه الانماط ، فى وجه من وجوهه، بدراسة أثر من الآثار الباقية التى تمثله وتوضح من معالمه ، وهو كتاب الموازنة بين الطائيين ، للآمدى .

— ٢ —

وكتاب الموازنة هذا يمثل النمط الأول من هذه الانماط الثلاثة، وهو أحد كتابين كبيرين مما وصل الينا من الآثار النقدية فى القرن الرابع ، كلاهما كان أثرا من آثار الخصومات الأدبية التى ثارت فى هذا القرن والذى قبله ، وغمرت البيئات الأدبية أمواجها وتياراتها، وذهبت فيها الاذواق والاهواء والنوازع مذاهب مختلفة، وكانت مصدرا خصيبا لنشاط قوى غامر اتخذ شتى المظاهر ، فكان من مظاهره كتاب الموازنة هذا وكتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه ، لعبد العزيز الجرجانى .

فأما كتاب الموازنة فمثاره تلك الخصومة الأدبية التى ثارت حول أبى تمام منذ أوائل القرن الثالث، وظلت متقدة محتدمة الأوار بعد أن انقضى عهد الشاعر بزمان ، كأنها لا تخضع لفعل الأيام ؛ بل لقد كان كل حدث أدبى جديد يمدها بالوقود، فهى بذلك دائمة الاشتعال . ذلك أن ابا تمام لم يعد فى هذه الخصومة شخصا بعينه ، وانما تحول رمزا لمذهب من مذاهب التجديد فى الشعر ، اشتق كيانه من بعض العناصر الأصيلة المتجددة فى الحياة الأدبية، ثم اتفق أن اعتبر معاصره وابن قبيلته، البحترى، رمزا للناحية المقابلة للمذهب الذى سلكه ابو تمام ، اذ كان رمزا للمحافظة الفنية ، والتزام عمود الشعر ، على حد تعبيرهم . وبذلك نرى أن الخصومة هنا ليست بين ابى تمام والبحترى ، وانما هى فى حقيقة الأمر خصومة بين مذهبين ، ما يزالان يقتسمان الميادين الأدبية ويتنازعانها فى كل زمان ومكان ، ومن ذلك ظلت هذه الخصومة متصلة متجددة، حتى لقد نجد بعض كتب المعاصرين تردد أصداءها، كما قد نجد بين نقادنا ومؤرخى الادب عندنا اليوم من يتعصب لأبى تمام ، ومن يتعصب

للبحترى عليه ، على تفاوت فى درجة التعصب تبعا للطبيعة والمزاج .

فالخصومة اذن بين أبى تمام والبحترى ليست الا مظهرا من مظاهر الخصومة الادبية الكبرى بين القديم والجديد، فهى خصومة أصيلة، ومن ذلك بقيت واستمرت بعد عهد الرجلين ، وبعد انتهاء ما يصحب عادة أمثال هذه الخصومات من أحقاد وضغائن ومشايعات شخصية تؤرثها وتزيد فى حدتها ، ومع ذلك بقيت لهجة الخصومة أحيانا حادة عنيفة، كأن تلك الاحقاد الشخصية ما تزال تؤرثها وتؤججها، كما نجد صورة من ذلك فى كلام الآمدى من انصار البحترى ، وفى كلام الصولى من شيعة أبى تمام .

وقد كان هناك قبل أبى تمام شعراء تظهر فى شعرهم مظاهر التجديد ، كبشار وابى نواس ومسلم بن الوليد ، كما اطردت سبيل التجديد بعده ، الا ان التجديد عند أبى تمام اتخذ شكلا واضحا بارزا مطردا فى جميع شعره، أو أنه بعبارة أخرى ، صاحب مذهب فنى فى الشعر اصطنعه وعرف مقوماته وحدوده ، وقد اعتبر نفسه مرتبطا به مسؤولا عنه ، فهو يتحراه فى عبارته الفنية ، ويأخذ به نفسه أشد الأخذ، لا يساهلها فيه ولا يتسمح لها . أما من قبله فلم يكن أمر التجديد عندهم مقصودا لنفسه ، أو هو — على الاقل — لم يكن موضع الاهتمام والتحرى منهم ، بل هو أشبه ان يكون انفعالا طبيعيا بهذه الحياة التى يحيونها بحواسهم ووجدانهم . وقد أخذت مظاهر هذا الانفعال تبدو فى اشعارهم فى صورة تعبير طريف أو تصوير بارع جديد أو معنى غير مألوف ، كأنما هى اصداء هذه الحياة لا اكثر ، دون قصد منهم اليها أو تعمد لها .

وبذلك اعتبر ابو تمام رأس هذا المذهب وصاحبه ، وبذلك كان محور الخصومة التى بدأت منذ ايامه ، بينه وبين بعض معاصريه من الشعراء ، كدعبل الخزاعى ، ومن العلماء اللغويين كابن الاعرابى محمد بن زياد ، وقد مضت الخصومة بعد ذلك الى الطبقة التى تلى هذه الطبقة ، وأخذت تخلص الى حد ما من شوائب الاعتبارات الشخصية ، لتكون خصومة أدبية خالصة . كما بدأت تثير منذ ذلك الوقت حركة قوية من الكتابة والتأليف حولها ، من هؤلاء وأولئك ، كالذى كتبه

ابن المعتز، ومحمد بن داود الجراح، وأحمدبن أبى طاهر، وابو الضياء بشربن تميم،وابو العباس ابن عمار القطربلى ، مما كان ــ ولا ريب ــ كبير الأثر عظيم الخطر فى تطور النقد الأدبى .

واستمرت هذه الخصومة الادبية ، نشيطة دائبة ، الى أن اتيح لهـا فى القرن الرابع ابو القاسم الحسن بن بشر الآمدى ، وبه بلغت حركة النقد الأدبى حول هذه الخصومة ذروتها ، اذ كان قد اجتمعت له مقومات الناقد الأدبى البصير، من العلم والفن ، ومن المعرفة والذوق ، ومن الخلق القوى المتزن . فأسهم فيها بكتابه هذا الذى سماه الموازنة بين الطائيين ، وأراد به أن يقف موقفا وسطا بين المتخاصمين ، وأن يكون رجلا موضوعيا فى الحكومة بينهما ، لا يغلبه الهوى على أمره كما غلب اسلافه .

على أن مما يقدم لنا اجل العون على فهم الكتاب وتقديره حق قدره ، وأجدر أن يقيمنا من ذلك على الطريق السوى القاصد ، أن نتعرف الى كاتبه ، فنتبين ملابسات حياته ، والوان ثقافته ، والاتجاه العقلى الغالب عليه ؛ كما نحاول أن نتعرف الملابسات التى لابست وضع هذا الكتاب ، مما قد يكون صاحب أثر فى توجيهه أو تلوينه ، فاذا نحن وفقنا فى تحقيق هذين الغرضين ، كان لنا أن نقدم على الكتاب درسا له والتماسا لحقائقه فى طمأنينة وثلج ضمير .

— ٣ —

يعد الآمدى ، أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى ، من أهل البصرة ، وان انتسب الى آمد باعتبارها الموطن الأصلى لأسرته ، ففى البصرة ولد ، وبها نشأ نشأته الأولى ، وفيها أمضى معظم حياته ، وبذل اكبر نشاطه ، الى أن وافاه الموت بها .

وتقع حياة الآمدى فى فترات ثلاث : أولاها وأخراها بالبصرة، والوسطى فى بغداد ، وان كانت مصادرنا لا تضع لهذه الفترات حدودا تتبين منها متى بدأت كل واحدة ومتى انتهت ، وانما الحد الوحيد الذى تذكره هذه المصادر هو الحد

الأخير للفترة الأخيرة التى انتهت بوفاته سنة ٣٧١ ، فذلك هو التاريخ الوحيد الذى يذكره اصحاب التراجم .

واذن فلا نعلم متى ولد الآمدى ، فقد أحاطت الجهالة بذلك التاريخ ، كما هو الشأن فى تاريخ مولد كثير من اعلام الحياة الادبية فى تلك العصور . ولكنا نعلم ان بين شيوخه الذين رحل الى بغداد لتلقى العلم عنهم ابا موسى الحامض ، سليمان ابن محمد بن أحمد ، المتوفى سنة خمس وثلاثمائة (١) . واذن فقد كان الآمدى ولا شك من مواليد القرن الثالث . بل لعلنا نستطيع أن نفترض فى غير كبير حرج أنه ادرك من ذلك القرن زمنا غير قصير ، قد يبلغ العشرين من الاعوام ، كما يدلنا ذلك على ان نهاية هذه الفترة البصرية الأولى ، وقد انتهت برحيله الى بغداد ، كانت قبل سنة ٣٠٥ .

وواضح انه فى مثل هذه الفترة الأولى تتكون الملامح الأولى للشخصية وتظهر خطوطها الرئيسية ، والى المؤثرات التى يتعرض لها الشخص فى مثل هذه المرحلة من حياته يرجع كثير مما يطبعه ويوجهه فى سائر حياته . فبنا الآن أن نتعرف المؤثرات الأولى التى عملت اذ ذاك فى تكوين شخصية الآمدى الأدبية ، وتوجيهها الوجهة التى انتهت بكتابه « الموازنة » . وليس لنا فى ذلك الا أن نكتفى بتعرف صورة الحياة الأدبية فى البصرة لذلك الوقت ، فلا حيلة لنا فى غير هذا ، اذ كانت هذه الفترة من حياة صاحبنا تمضى يجللها الصمت المطلق ، فما يعرض لها أحد بكلمة .

ولم تكن البصرة فى ذلك العهد كشأنها من قبل ، حين كانت مركز النشاط الأدبى والعلمى ، بل كانت قد فقدت هذه المكانة ، وقد جعلت تفقدها شيئا فشيئا منذ أول القرن الثالث ، حين أخذت وجوه النشاط تتجه الى بغداد وتتجمع فيها، ثم أخذت تمتد بعد ذلك الى الأقاليم الشرقية ، فلم يكد ينتهى هذا القرن ، حتى لم يبق بالبصرة الا أثارات من هذا النشاط معظمها ادبى ، وبهذه الأثارات استطاعت

(١) انظر تاريخ بغداد ٩ : ٦١ ط القاهرة ، ١٩٣١ ، معجم الادباء ١١ : ٢٥٥ ط دار المأمون. انباه الرواة على انباه النحاة ٢ : ٢١ ، ط دار الكتب المصرية، ١٩٥٢

ان تحتفظ بشيء من تلك المكانة القديمة لذلك المصر ، كما كان من هذه البقية الباقية لها ما بقى للناس فيها من تذوقهم للأدب وتقديرهم له واقبالهم عليه ، التماسا للمتعة • ومن ذلك اتجه الشعر فيها الى الاتصال بجمهور الناس والتعبير عنهم والتماس اسباب حياته عندهم ، ومن أجل ذلك كان أدنى الى البساطة ، وأقرب الى السهولة ، مع احتفاظه مع ذلك بالديباجة العربية السليمة •

ولعل من أوضح الدلائل على هذه الظاهرة فى الحياة الأدبية بالبصرة لذلك العهد أن كان أحد أنديتها الأدبية اذ ذاك دكانا من دكاكين الخبازين، هو دكان نصر بن أحمد الخبزأرزى ، فى المربد ، وكان نصر هذا ــ كما يقول الثعالبى فى حديثه عنه « أميا لا يكتب ولا يتهجى • وكانت حرفته خبز خبز الأرز فى دكانه بمربد البصرة ، فكان يخبز وينشد أشعاره المقصورة على الغزل ، والناس يزدحمون عليه ، ويستطرفون باستماع شعره ، ويتعجبون من حاله وامره ، واحداث البصرة يتنافسون فى ميله اليهم وذكره لهم ، ويحفظون كلامه ، لقرب مأخذه وسهولته • وكان ابن لنكك ــ على ارتفاع مقداره ــ ينتاب دكانه ويسمع شعره » [1] • وكما كان ابن لنكك من رواد هذا النادى ، كذلك كان منهم ابو عبد الله المفجع البصرى ، وابو عبد الله الاكفانى الشاعر [2] •

والواقع ان هذه الندوة الشعبية تؤدى لنا صورة صادقة عن الحياة الادبية فى البصرة لذلك الوقت • فهى حياة شعبية اكثر منها ارستقراطية ، ورواد هذه الندوة هم من بين شباب يشدون الادب ويتذوقونه ويستمتعون به ويعجبون بهذه الالوان الطريفة القريبة منه ، وجماعة من الشعراء الشيوخ يغلب على شعرهم ذلك الطابع : السهولة واليسر وقرب المأخذ والصدق الفنى • كذلك كان ابن لنكك، ابو الحسن محمد بن محمد بن جعفر «فرد البصرة وصدر أدبائها وبدر ظرفائها فى زمانه ، والمرجوع اليه فى لطائف الأدب وطرائفه طول أيامه » ، «واكثر شعره ملح وطرف ، خفيفة الأرواح ، تأخذ من القلوب بمجا معها ، وتقع من

(١) يتيمة الدهر ٢ : ٣٣٧ ط الصاوى ، ١٩٣٤ ــ (٢) انظر تاريخ بغداد ١٣ : ٢٩٩ ، معجم الادباء ١٩ : ٢١٩

النفوس أحسن مواقعها، وجلها فى شكوى الزمان وأهله، وهجاء أهل عصره» [1] • وكذلك كان المفجع البصرى، أبو عبدالله محمد بن عبدالله الكاتب، فقد كان شعره ــ كما يقول الثعالبى ــ « كثير الحلاوة ، يكاد يقطر منه ماء الظرف » [2] • ولكنه كان الى هذه الصفة الادبية عالما واسع العلم والرواية ، وقد ذكر له ياقوت طائفة من الكتب فى الشعر [3] ، كما وصفه الثعالبى فى الفصل الذى كتبه عنه بانه « صاحب ابن دريد ، والقائم مقامه بالبصرة فى التأليف والاملاء » •

وهكذا نرى أن ذلك الطابع الفنى القريب من الروح الشعبية كان الطابع الغالب اذ ذاك على الحياة الأدبية بالبصرة ، حتى على الرواة وعلماء اللغة ، كما رأينا فى أبى عبدالله المفجع هذا، وكما نراه فى شيخه ابى بكر ابن دريد وان كان ابن دريد يعد من الجيل السابق على هذا الجيل الذى نتحدث عنه ، ولو انه عاش الى هذا الوقت، وادركه الآمدى وتلمذ عليه زمانا فى بغداد، وربما تلمذ عليه فى البصرة قبل رحيله عنها ، فى بعض الاوقات التى كان ابن دريد يقصدها فيها، ويعقد مجالسه بها• وكان ابن دريد الى جانب علمه وروايته الواسعة شاعرا جزل الشعر، فقد جمع بين العلم والفن• وهو وان لم يكن يذهب فى شعره مذهب المفجع وابن لنكك ، الا انه كان جاريا على سنن الأوائل •

وراوية آخر يعرض جانبا آخر لصورة الحياة الأدبية فى البصرة لذلك العهد ، وكان ــ فيما يبدو ــ كبير الأثر فيها ، وهو أبو رياش اليمامى • ويصفه الثعالبى بانه « باقعة فى حفظ ايام العرب وأنسابها وأشعارها، غاية بل آية فى هذ دواوينها وسرد أخبارها ، مع فصاحة وبيان ، واعراب واتقان » [4] • وكان ابو رياش هذا شديد الوفاء لصناعته هذه، وكان من وفائه لها انه لم يكن يقدر غير الشعر القديم الذى تتعلق به روايته ، كما لم يكن يعترف بهؤلاء الشعراء المحدثين الذين افسدوا الشعر عنده ومسخوه ، كما نرى هذا فيما أورده الثعالبى من قول ابن لنكك فى هجائه :

(١) اليتيمة ٢ : ٣٢٠ ــ ٣٢١ ــ (٢) اليتيمة ٢ : ٣٣٤
(٣) معجم الادباء ١٧ : ١٩٤ ــ (٤) اليتيمة ٢ : ٣٢٤

يقول : ابن هانى افسد الشعر ضلة وشعر ابى تمامكم هو أضيع
ابا الريش، يا صفعان، صفعك واجب ولكن مضى من كان فى الله يصفع

فها هو ذا يجعل ابا نواس وابا تمام فى منزلة واحدة فى تنديده بهما وطعنه عليهما، وانما جمع بينهما عنده انهما من الشعراء المحدثين . وقد عرض القاضى الجرجانى فى سياق كلامه عن عصبية بعض الرواة والعلماء للمتقدمين من الشعراء ، لرجل اسمه — كما جاء فى النسخة التى بين ايدينا — رياش القيسى، وكأنماهو أبو رياش اليمامى هذا ، فيما يغلب على الظن . قال : « وحدثنى جماعة من أصحاب رياش القيسى ، ولا نعرف فى زماننا راوية تقدمه . وكان معروفا بالتحامل على هؤلاء ، والغض من أبى تمام والبحترى خاصة، حتى ان نسخ هذين الديوانين قلت بالبصرة فى وقته »[1] واذن فهو لا يجمع بين ابى نواس وابى تمام فحسب، ولكنه يجمع بين أبى تمام والبحترى ، قطبى الخصومة، فالخصومة عنده فيهما خصومة لا معنى لها ، اذ المحدثون جميعا ملة واحدة . وقد كان — كما يؤخذ من كلام الجرجانى — شديد التأثير فى الحياة الادبية فى البصرة فى ذلك العهد ، حتى بلغ من هذا التأثير ومن توجيهه للذوق الفنى فيها ان اعرض الناس عن شعر ابى تمام والبحترى جميعا ، فقلت نسخ هذين الديوانين فى البصرة اذ ذاك .

وبعد ، فهذه صورة من الحياة الأدبية التى اخذ الآمدى يتنسمها فى البصرة أول عهده : نزعة ادبية فنية خالصة أو كالخالصة ، يمثلها الشعراء الذين لا يكادون يعنون بغير الشعر يتذوقونه ، ويمثلها العلماء الرواة للشعر ، وكان منهم من يتشيع للقديم حتى لا يكاد يعترف بشىء من هذه المذاهب الفنية المحدثة فى قول الشعر ، كأبى رياش اليمامى هذا ، ومنهم من كانت تبعد به عن هذا التعصب وتحميه منه نزعته الفنية، كأبى عبد الله المفجع .

وتلك هى صورة الفن كما وقرت فى نفس صاحبنا : السهولة والبساطة ، وجزالة اللفظ ، وقرب المعنى، وصدق الوصف، ومهما اختلفت النوازع التى رأيناها فى تقدير الفن فانها لا تختلف فى هذه الصفات . كما انه ليس فيها على كل

(١) الوساطة بين المتنبى وخصومه ، ص. ٥ ط دار احياء الكتب العربية ، ١٩٤٥

حال ذلك الايغال والتعمق، ولا ذلك الكد والتكلف. ولا ذلك الاتكاء على النفس فى الاستخراج والتوليد ، وما قد يؤدى اليه من غموض وتعقيد . ولسنا نريد أن يذهب بنا القول الى ادعاء أن هذه هى الصورة الوحيدة للفن الشعرى فى البصرة اذ ذاك، ولكنا نقول ان هذا الطابع هو الغالب عليه فيها، وانه فوق ذلك هو الأجدر أن يلائم نفسا كنفس الآمدى ، لم تلق — فيما يبدو — من صروف الحياة ما يعقدها، وان يناسب عقلا كعقله لم تأخذه الدراسات الكلامية أو الفلسفية بالتعقيد والايغال .

— ٤ —

وتنتهى الفترة الأولى من حياة الآمدى فى البصرة، لتبدأ فترة حياته الثانية، فى بغداد .

ولا ندرى على وجه التحقيق فيم كان رحيل الآمدى عن البصرة وخروجه الى بغداد. أأخرجته اليها حاجة من حاجات حياته المادية ، أم هى حياته العقلية التى اقتضته تلك الرحلة ؟ مهما يكن من أمر فقد كان مقامه فى بغداد موسوما بطلب العلم، فقد كان طلب العلم غاية هذه الرحلة أو احدى غاياتها . فلم تكن هذه الحياة الأدبية الخالصة التى رأيناها فى البصرة كافية اذ ذاك فى تكوين الرجل واعداده لما يطمح اليه، بل كان لابد من طلب العلوم النظرية، وعلم النحو خاصة على شيوخه الذين بلغوا به اذ ذاك مبلغا كبيرا، وأشاعوا فيه بعض الالوان الفلسفية . وكانت بغداد هى المدينة التى تضم رءوسهم وأصحاب المنزلة العليا فيهم، فكان على المتأدب أن يشد اليها رحاله، ليلقى هؤلاء الشيوخ .

وكذلك رحل ابو القاسم الى بغداد، وابتدأ فيها عهدا جديدا بدأه بلقاء الشيوخ والجلوس اليهم والاستماع منهم والقراءة عليهم ، كما كان يصنع الناس فى البصرة منذ أقل من قرن، حين كانت موئل العلم ومثابة العلماء ، يرحل الناس اليها من مشارق الأرض ومغاربها ليطلبوا العلم فيها ؛ أما الآن فقد غلبتها بغداد على العلم والعلماء، منذ أخذ علماء البصرة يرحلون اليها، ليكونوا فى كنف خلفائها وامرائها، فمازال ذلك حتى لم يبق للبصرة الا هذه البقايا الأدبية التى أشرنا اليها، والاشىء

من مجالس العلم لا خطر له ولا يكاد يعبأ به. واذا كان صاحبنا قدوجد فى تلك الحياة الادبية غذاء لحسه البيانى وتجاوبا مع نزوعه الفنى ، فانه ماكان ليجد فيها ما يعده للحياة العاملة التى يطمح اليها .

وقد كان على الآمدى أن يعد نفسه لاحدى خطتين فى الحياة ، ان يكون عالما يقصده الطلاب ويتحلقون حوله ويأخذون عنه، كما هو شأن ذلك العدد الكبير من رجال البصرة، وكما هو شأن ابن بلده الذى يعيش الآن فى بغداد: أبو بكر ابن دريد، وقد أصبح مطمح الانظار، وملقى عصا التسيار، اذ بلغ بالعلم المبلغ الذى جعل الناس يتسامعون به فى انحاء البلاد، ثم هاهى ذى الدولة قد أجرت عليه خمسين دينارا كل شهر، وما أجدره أن يهيىء نفسه ليكون خلفا له .

والخطة الأخرى أن يكون كاتبا كهؤلاء الكتاب الذين يملأون دواوين الدولة ، ويتمتعون بالجاه الظاهر، وتجرى عليهم الارزاق الوفيرة، وقد يصل بعضهم الى منصب الوزارة . ومعرفة النحو شرط أولى وضرورى لصناعة الكتابة، لا مسامحة فيه . فايا كانت الخطة التى ينتهى اليها أمره، فهو الآن فى سبيل الاعداد لها بتلقى النحو عن نحاة بغداد .

وقد تلقى الآمدى النحو على طائفة من شيوخ النحاة، منهم ابو موسى الحامض، سليمان بن محمد بن أحمد (المتوفى سنة ٣٠٥)، والزجاج ابراهيم بن السرى بن سهل (المتوفى سنة ٣١١)، والأخفش الأصغر على بن سليمان (المتوفى سنة ٣١٥)، وابن السراج، محمد بن السرى بن سهل (المتوفى سنة ٣١٦)، ونفطويه، ابراهيم بن محمد الأزدى (المتوفى سنة ٣٢٣) . وقد ذكر ياقوت انه رأى سماع الآمدى على كتاب القوافى لابى العباس المبرد ، وقد سمعه على نفطويه سنة ثلاث عشر وثلثمائة [1] .

ولا نريد أن نقف عند هؤلاء الشيوخ، فلنكتف بهذا السرد لأسمائهم؛ ولكنا لا نكاد نذكر ابا موسى الحامض فيهم، حتى نذكر ما كان بينه وبين ابى بكر الصولى، صاحب كتاب أخبار ابى تمام، من عداوة ومكايدة، على النحو الذى يشير اليه

(١) معجم الأدباء ٨ : ٧٦

الصولى فى رسالته الى ابى الليث مزاحم بن فاتك، اذ يقول له : « وانت اعزك الله تشهد لى من بين الناس أن ابا موسى الحامض كان يثلبنى عندك وتنهاه، ويكثر من عيبى والطعن على سائر ما أمليته ، وانه لا فائدة فى شىء منه »[1] . فلنسجل هذه الملاحظة الآن، فقد نحتاج اليها بعد، حين ننظر فى «الموازنة»، وفى التماس الملابسات المختلفة التى لابست الآمدى فى كتابتها، و فى مكان كتاب الصولى منها .

انفق الآمدى فى دراسة النحو والسماع على شيوخه وقراءة كتبه المختلفة ما انفق من وقت وجهد، حتى بلغ منه المبلغ الذى ارتضاه، والذى جعله معدودا بين النحاه، فياقوت فى ترجمته له يلحق باسمه صفة «النحوى» ، والقفطى يترجم له فى كتابه الذى جعله فى تراجم النحويين[2] . ولكنا حين نريد أن نتعرف هذه الصفة فى أسماء كتبه التى تذكر فى تراجمه ، لا نكاد نجد بينهما ما يدل عليها دلالة صريحة، فانما هى كتب فى الشعر والنقد واللغة . وقد يكون هنالك فيما طوى ذكره من كتبه ماهو فى النحو، ولكن اكبر الظن انه لم يطو ذكره الا وهو غير ذى بال فى موضوعه .

فان صح هذا، وهو الأشبه عندنا، فما عسى أن تكون دلالته من الناحية التى نقصد اليها ، وهى تعرف الأسباب التى وجهت الآمدى الناقد تلك الوجهة التى نراها فى كتابه « الموازنة »؟

أحسب ان الدلالة القريبة لهذا هى أن تلك النزعة الأدبية التى جعلت تنفتح فى البصرة على تلك الحياة التى كان يمثلها فيها من الشعراء أمثال ابن لنكك والخبزأرزى ، ومن الرواة امثال المفجع وابى رياش ، لم تستطع الدراسات النحوية التى اخذ نفسه بها، وارتبط نفسه فى حلقاتها ، أن تطغى عليها ؛ وان تحوله من الرجل الأديب الذى يطرب للشعر ويهتز له ، ويحس بذوقه ووجدانه مواطن الجمال فيه فيتفتح قلبه لها، الى الرجل العالم الذى لا يرى فى الشعر الا اداة جامدة من أدوات صناعته ، ولا يكاد يعنيه منه الا مبلغ ما فيه من موافقة أو مفارقة لأصوله وقوانينه وفلسفته .

واذن فهل يكون معنى هذا ان دراسته للنحو هذه المدة الطويلة — فيما نفترض — كانت عبثا من العبث ، وانه لم يفد منها شيئا سوى أن أصبح فى اعتبار الناس

(١) اخبار ابى تمام، ص ١٠ — ١١ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٧
(٢) الانباه على انباه النحاة ١ : ٣٨٥ ط دار الكتب المصرية، ١٩٥٠.

رجلا مثقفا بثقافة عصره ؟ أما انه ليس فى طبيعة الدنيا أن يذهب شيء مما يجرى فيها باطلا لا أثر له؛ فلكل شيء فيها أثره لا محالة، وسواء بعد ذلك أن يكون هو ما قصد اليه الانسان أم غيره. فان تكن دراسة النحو لم تستطع أن تحول الآمدى الى واحد من هؤلاء النحاة من أهل القرن الرابع ، الذين اجترفتهم نزعة التخصص والتعمق التى اشرنا اليها فى صدر هذا البحث ، فمضوا مع أصولهم وقواعدهم، يمدون أطنابها، ويعمقون جذورها واسبابها ، دون أن يقفوا عند روائع البيان يتملونها ويتذوقونها ، كما كان يفعل اسلافهم ، كالمبرد وثعلب ؛ اذا كانت دراسة النحو لم تصنع به هذا الصنيع ، ولم تحوله الى ذلك الرجل ، فانها لم تدع على كل حال أن تأخذه بروح الدقة والنظام ، والميل الى تعليل ما يصدر من أحكام ، وهو ما نراه فى كتابه « الموازنة » فلعل ذلك يرجع فى كثير منه الى هذه الدراسة النحوية فى هذه الصورة وذلك المنهج . وقد كانت هذه الدراسة — فيما نحسب — من أول الأسباب التى أقدمته بغداد، فلا جرم كان اثرها فى منهجه غير قليل .

وطبيعى انه وجد فى بغداد — الى جانب حلقات النحو — مجالس للأدب ، وانه استطاع أن يمضى فيما بدأه فى البصرة من الاتصال بالبيئات الادبية التى تعنى بالشعر انشاءا وانشادا ورواية ودرسا ، وهى بيئات الشعراء وبيئات الرواة . وقد كان ابن دريد يقضى اذ ذاك فى بغداد الشطر الأخير من حياته . وقد كان — كما قلنا — يعد فى ذلك الوقت شيخ رواة عصره . وكان رجلا راوية شاعرا معا، فيه ذوق الشعراء ودقة الرواة . وقد أدركه الآمدى فى بغداد فى هذه الفترة ، ووجد عنده ما كانت تتطلع اليه مطامحه الأدبية ، وما كانت تتجه اليه أحاسيسه الفنية ، ولعله كان المثل الذى يطمح أن يكونه .

والى هنا نرى الآمدى مزاجا من الشعر والرواية والنحو . فأما الشعر فمعناه الانفعال بصور الجمال الفنى ، واما الرواية فمعناها الالمام بصور العبارة الفنية ، أو هى الاحاطة بالوان الثقافة الفنية ، وأما النحو فمعناه عند الآمدى كما رأينا هذه الصفات العقلية المنهجية : دقة النظر ، ونظام الفكر ، وتعليل الرأى . وتلك

بهذه المعانى وهذا الترتيب هى عناصر الآمدى الناقد : الذوق الفنى، والثقافة الفنية، والنزوع العلمى .

— ٥ —

واذ لم يصلح الآمدى ليكون رجلا من رجال النحو ، على ما كان عليه نحاة ذلك العصر ، فقد انتفى احد الأمرين الذين افترضناهما غاية الرحلة الى بغداد : ان يكون عالما أو كاتبا ، واذن فلم يبق الا أن يكون الثانى . ولا ريب انه قد حصل من النحو القدر الضرورى — أو ما فوقه — لهذه الصناعة ، كما نرى انه حصل أثناء مقامه فى بغداد الوان الثقافة المختلفة التى يشترط فى الكاتب تحصيلها ، من شرعية ورياضية وغير ذلك ، على النحو الذى نراه مثلا فى مقدمة ادب الكاتب لابن قتيبة ، الى جانب ما كان له من ثقافة ادبية ممتازة .

وكذلك لا نلبث حتى نجد الآمدى كاتبا من الكتاب ، ولكنه لم يكن من كتاب دواوين الدولة ، كديوان الرسائل أو ديوان الخراج أو ديوان الزمام أو ما الى ذلك ، فقد كان دون الوصول الى هذه الدواوين عقبات وعقبات ؛ ولكنه كما يقول ياقوت — « كان يكتب بمدينة السلام لأبى جعفر ، هارون بن محمد الضبى ، خليفة أحمد بن هلال، صاحب عمان » . فلم يكن اذن كاتبا من كتاب الدولة — ولهذا فيما نرى اثره الذى سنبينه بعد — وانما كان من هؤلاء الكتاب الذين يديرون أمور السراة ويتولون شؤونهم وينظمون أعمالهم . وقد يكون هؤلاء الكتاب أقل فى المنزلة الاجتماعية من كتاب الدولة ، ولكن هذا المكان كان — فيما يبدو — اكثر ملاءمة لصاحبنا ، فقد كان صاحبه هذا الذى يكتب له رجلا من طراز آخر غير ذلك الطراز الذى نعرفه فى عامة سراة البغداديين وأغنيائهم .

كان أبو جعفر الضبى هذا رجلا سريا حقا بكل ما تحمله كلمة السراوة من معنى، من شرف الأصل ونبل المنزلة وعراقة الجاه ومعانى السؤدد . كان اسلافه ملوك عمان فى الدهر القديم ، وكان يجمع الى هذا العلم الواسع والمعرفة الغزيرة ، والسمت والوقار وطهارة النفس ، وكانت داره ندوة من الندوات الادبية الرفيعة.

وقد وصفه على بن عمر الدارقطنى ، امام محدثى عصره ، بقوله : « استولى على الفضائل ، وساد بعمان فى حداثة سنه ، ثم خرج عنها ، فلقى العلماء بمكة والكوفة والبصرة. ورحل الى مدينة السلام سنة خمس وثلاثمائة، فعلت منزلته عند السلطان، وارتفع قدره ، وانتشرت مكارمه وعطاياه ، وانتابه الشعراء من كل موضع وامتدحوه واكثروا ، وأجزل صلاتهم ، وأنفق امواله فى بر العلماء والافضال عليهم، وفى صلات الاشراف من الطالبيين والعباسيين وغيرهم ، واقتناء الكتب المنسوبة . وكان مبرزا فى العلم باللغة والشعر والنحو ومعانى القرآن والكلام . وكانت داره مجمعا لأهل العلم فى كل فن ، الى ان توفى فى سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة »[1] .

هذا هو الرجل الذى اتيح للآمدى فى بغداد أن يتصل به ذلك النوع من الصلة، وهى صلة تجعله اكثر الناس اختلاطا به ومداخلة له. وهو — كما نرى — يعد من الشخصيات الفريدة، فى ذلك العصر، بهذه المآثر المختلفة له، وهذه النواحى القوية لشخصيته ، مما لا نستطيع معه الا القول بأنه كبير الأثر فى كاتبه الآمدى .

ولعل أول ذلك انه جنبه بالكتابة له ما كان معرضا له لو أن عمله كان فى الديوان ، كاتبا من كتاب الدولة ، من أسباب الغرور المقيت والدعوى العريضة ، والذهاب فى ذلك مذهب العجب والصلف ، والاكتفاء بذلك المظهر البراق عن التكمل بالعلم وألوان المعرفة ، الى غير ذلك مما نعرف من اخلاق عامة الكتاب ، وكان ذلك جديرا أن يصرفه عن أسباب المنزلة الأدبية التى بلغها. وأخرى انه أتاح له بهذه الصلة بيئة من أرفع البيئات وأبعثها لحوافز الطموح الأدبى والكمال العلمى . يلتقى فيها العلم والفن ، ويجتمع فيها الحديث والشعر ، ويلتزم فيها نوع من الوقار والتحفظ . وثالثه ان ابا جعفر الضبى كان بسمته ووقاره وعلمه وادبه وفضله مثالا لا بد أن يكون قد اجتذبه اليه ، كأنما كان يرى فيه الصورة الكاملة للرجل، فى ذلك العصر الذى اختلطت فيه القيم ايما اختلاط، واضطربت فيه معايير الرجال ايما اضطراب .

(١) تاريخ بغداد ١٤ : ٣٣

وهكذا نستطيع أن نرى فى هذا الذى اتيح للآمدى فى بغداد من عمل يكسب به عيشه ، عاملا جديدا فى تكوين شخصيته ، وفى انضاج ملكاته العقلية والفنية ، وفى اخذه باسباب الاتزان ، مما نحسب ان كان له أثر غير قليل فى الناحية النقدية التى نلتمس بهذا كله مقوماتها وموجهاتها عنده .

وكما لم نعرف متى جاء الى بغداد ، كذلك لا نعرف على وجه التحقيق متى تركها عائدا الى البصرة ، وفيم كانت هذه العودة . ولكن الشىء الذى نستطيع فى غير قليل من الطمأنينة أن نقطع به هو أنه كان بالبصرة قبل عام ٣٣٦ ، وهو العام الذى انتهت فيه امارة ابى القاسم البريدى على البصرة [1] ، فقد نقل ياقوت عن نشوار المحاضرة للتنوخى قصة حدث بها الآمدى ، جرت بينه وبين طلحة بن الحسين بن المثنى ، عن الخصومة التى كانت بين طلحة وبين أبى القاسم البريدى ، واشارته على طلحة أن يهرب من البصرة ولا يقيم [2] ، مما يدل على انه كان بالبصرة فى اثناء امارة ابى القاسم البريدى عليها ، وكان ذلك فيما بين سنة ٣٣٢ وسنة ٣٣٦ . أما متى بدأت هذه الاقامة فليس لدينا ما يدل عليه ، الا اذا افترضنا انه لبث فى بغداد مصاحبا لأبى جعفر الضبى ، الى أن مات سنة ٣٣٥ ، فرحل بعد ذلك الى البصرة . وهو فرض قريب .

— ٦ —

وتبدأ الفترة الثالثة من حياة الآمدى منذ عودته هذه الى البصرة ، الى وفاته بها سنة ٣٧١ وهى الفترة التى برزت فيها شخصيته الادبية ، وحفلت باتتاجه القوى الغزير ، كما سنرى صورة من ذلك .

ولكن هذه الفترة لم تخلص تماما للتأليف والانتاج العلمى ، فقد اصطنع فيها الكتابة ايضا ، وكان ذلك فى الشطر الأول منها . قال ياقوت : « وكتب بالبصرة لأبى الحسن أحمد ، وابى أحمد طلحة بن الحسن بن المثنى ، وبعدهما لقاضى البلد

(١) انظر : تجارب الامم لمسكويه ٦ : ١١٢ ط مصر ، ١٩١٥
(٢) معجم الادباء ٨ : ٩٠

ابى جعفر بن عبد الواحد الهاشمى[1] ، على الوقوف التى تليها القضاة ، ويحضر به فى مجلس حكمه ، ثم لأخيه أبى الحسن محمد بن عبد الواحد ، لما ولى قضاء البصرة ، ثم لزم بيته الى ان مات»[2] . وأبو أحمد المذكور فى هذا النص هو الذى اشرنا اليه منذ قليل ، انه كان من المناوئين لأمير البصرة أبى القاسم البريدى . وقد انتهى أمره بان قبض البريدى عليه ، « وكان من أمره ما كان » ، كما يقول الآمدى فى نهاية تلك القصة .

وقد ظل الآمدى يصطنع الكتابة فى البصرة الى سنة نيف وخمسين وثلاثمائة ، وكان اكثر ذلك كما رأينا فى مجالس القضاء ، وكان آخر عهده بهذه الصناعة حين صرف، ذلك العام ، محمد بن عبد الواحد عن قضاء البصرة ، وولى على قضائها « رجل لم يكن عندهم بمنزلة من صرف به» ، كما يقول ياقوت . وقد قال فيه الآمدى قطعته الشعرية العابثة الساخرة ، التى تدل على شاعريته الأصيلة ، وعلى روح السخرية عنده ، كما تدل على مذهبه الفنى من ايثار السهولة واليسر وقرب المأخذ فى الشعر ، وتلك هى التى يبدؤها بقوله ، كما يوردها ياقوت :

رأيت قلنسوة تستغيـ ـث من فوق رأس، تنادى: خذونى

وبذلك ينتهى عهد اصطناعه للكتابة ، وتفرغ بعدها للعلم ، وقد تهيأت له الغاية الأخرى التى كانت ما تزال تساوره ، أن يكون عالما يبث العلم ويؤخذ عنه ، كما كان شيخه ابو بكر ابن دريد .

وهكذا انتهى الأمر بالآمدى . وأصبح عالما معروف الاسم مقصود المجلس فى البصرة ، وصار المرجع الذى يرجع اليه الطلاب والمتأدبون فى فنون الأدب المختلفة ، كما قال القفطى فى سياق ترجمته له : « واتسع فى الآداب وبرز فيها ، وانتهت رواية الشعر القديم والأخبار فى آخر عمره ،بالبصرة ، اليه» ، وبذلك احيا مجالس الرواية الأدبية التى كانت البصرة حريصة على الا تزال ممثلة فيها ، وأخذ المكان الذى كان يحتله بها ابن دريد والمفجع وابو رياش فى هذا العهد الأخير لها ، وبه استطاعت البصرة أن تمد مجدها الأدبى التالد فترة من الزمن أخرى .

(١) هكذا جاء اسمه فى النص هنا، وفى موضع آخر (ص ٨١) ما يدل على ان اسمه هو : « ابو القاسم جعفر » ، كأن كلمة « القاسم » سقطت من النص فى هذا الموضع .

(٢) معجم الأدباء ٨ : ٨٧

(٣) الانباءه على انباه الرواه ١ : ٢٨٨

وكان من وجوه النشاط التى اتجه الآمدى اليها تأليف الكتب فى الموضوعات الادبية المختلفة . ومن آثاره التى بلغتنا أسماؤها كتب تدل هذه العنوانات على انها من صميم النقد الادبى، من ذلك كتابه « فى أن الشاعرين لا تتفق خواطرهما » فهذه المسألة التى عالجها فى هذا الكتاب تعد من آصل مسائل النقد الأدبى ، اذ هى — كما يبدو — تتعلق بأصل الابداع الفنى . ووددنا لو أن هذا الكتاب وصل الينا ، لنعرف ماذا قال فيها ، وبأى أسلوب عالجها .

ومن هذه الكتب أيضا «كتاب فرق ما بين الخاص والمشترك من معانى الشعر» . وقد ذكر ياقوت فى التعليق عليه انه « تكلم فيه على الفرق بين الألفاظ والمعانى التى تشترك العرب فيها ، ولا ينسب مستعملها الى السرقة ، وان كان قد سبق اليها ، وبين الخاص الذى ابتدعه الشعراء وتفردوا به » . وقد يكون بين موضوع هذا الكتاب والذى قبله صلة من حيث الأصل الأول فى الموضوعين . ولكن هذا الكتاب يعالج فى الواقع بحثا من الأبحاث التى أثارها فى جو النقد الأدبى مسألة السرقات الشعرية ، وهى المسألة التى عظم شأنها وكثر الكلام فيها فى الحركة النقدية التى ثارت حول ابى تمام .

ونستطيع أن نتبين مذهب الآمدى فى مسألة « الخاص والمشترك من معانى الشعر » فيما عرض له من ذلك فى كتابه « الموازنة » . فقد عرض لهذه المسألة فى موضعين : أولهما فى سياق الفصل الذى عقده لايراد «سرقات ابى تمام» اذ عرض لكتاب ابن ابى طاهر الذى خرج فيه سرقات ابى تمام « فأصاب فى بعضها وأخطأ فى البعض، لانه خلط الخاص من المعانى بالمشترك بين الناس، مما لا يكون مثله مسروقا»[1]، والثانى فى الفصل الذى عقده لايراد « سرقات البحترى » ، اذ عرض للكتاب الذى كتبه فى ذلك أبو الضياء بشر بن تميم، ونقد مذهبه فى السرق[2] . وجملة القول فى مذهب الآمدى فى السرق أنه «انما هو فى البديع المخترع الذى يختص به الشاعر، لا فى المعانى المشتركة بين الناس التى هى جارية فى عاداتهم ، ومستعملة فى أمثالهم

(١) الموازنة ، ص ١٠٠ ، ط حجازى بالقاهرة ، ١٩٤٤ — (٢) الموازنة ، ص ٣٢٠ . وقد عرض الآمدى لأبى الضياء قبل ذلك (ص ٤٥) بأنه «ذكر ما يشترك الناس فيه، وتجرى طبائع الشعراء عليه ، فجعله مسروقا » .

ومحاوراتهم ، مما ترتفع الظنة فيه عن الذى يورده ان يقال اخذه عن غيره» . فذلك هو راى الآمدى فى السرقة الأدبية، وقد قرره فيما نقد به كلا من ابن ابى طاهر وبشر بن تميم ، تقريرا جليا .

وكانما جعل الآمدى هذا الكتاب فى ايضاح ما تقع فيه السرقة ، وهو الخاص من معانى الشعر ، ومالا تقع فيه ، وهو المشترك منها ، وتفصيل ذلك وايراد شواهده وامثاله ، ومناقشة ما وقع فيه الخلاف منه .

وكذلك عنى الآمدى بنقد بعض الكتب التى وضعت فى عصره أو قريبا منه ، فى النقد الأدبى ، فكتب فى ذلك غير كتاب . من ذلك كتابه : « تبيين غلط قدامة بن جعفر فى كتاب نقد الشعر » . وقد قال ياقوت عن هذا الكتاب انه « الفه لأبى الفضل محمد بن الحسين بن العميد وقد قرأه عليه ، وكتب خطه سنة خمس وستين وثلاثمائة » . ومن هذه العبارة نرى كيف استطاع الآمدى ، بما أحرزه من منزلة ادبية رفيعة وصيت علمى ذائع . ان يتصل بأصحاب السلطان ، فاتصل بابى الفضل ابن العميد وزير ركن الدولة . وكان هذا الكتاب مظهرا من مظاهر هذه الصلة .

وقد عرض الآمدى لقدامة فى غير موضع من كتابه « الموازنة » ، مما لعله يؤدى الينا فكرة ما عن كتابه هذا . عرض لبعض الاصطلاحات التى استعملها قدامة ، فنقدها ، كاستعمال كلمة «المتكافىء» للدلالة على المطابق ، واستعماله «المطابق» للدلالة على ضرب من ضروب الجناس . قال الآمدى — بعد اشارته الى هذا الصنيع فى كتاب قدامه « المؤلف فى نقد الشعر » — : « وما علمت أن أحدا فعل هذا غير أبى الفرج ، فانه — وان كان هذا اللقب يصح لموافقته معنى الملقب به ، وكانت الألفاظ غير محظورة — فانى لم اكن احب له أن يخالف من تقدمه ، مثل ابى العباس عبد الله بن المعتز ، وغيره ممن تكلم فى هذه الانواع وألف فيها »[1] . ومن ذلك أيضا استعمال قدامة لكلمة « المعاظلة » ، وذهابه فى اطلاقها مذهبا مخالفا[2]، اذ يقول الآمدى ، بعد أن أورد تعريفها الذى اطبق عليه العلماء ، : « الا ابو الفرج قدامة بن جعفر ، فانه ذكر ذلك فى كتابه المؤلف فى نقد الشعر ، ومثل له امثله ،

(١) الموازنة ص ٢٦٠ — (٢) نقد الشعر ، ص ١٧٤ ط الخانجى ، ١٩٤٩

فغلط فى امثلة المعاظلة ، وقد ذكرت ذلك فى كتاب بينت فيه جميع ما وقفت عليه من سهوه وغلطه[1] . ولعلنا نستطيع أن نرى فى هذا الحرص من الآمدى على اقرار المصطلح العلمى ، وتلك الكراهية لعبث قدامة به على ذلك الوجه ، مظهرا من مظاهر العقلية المنظمة ، وأثرا من آثار الدراسة النحوية ، كما سبق لنا القول فى هذه الناحية .

وهناك موضع ثالث عرض فيه الآمدى لقدامة فى الموازنة ، فى الجزء الذى لم يطبع منها بعد ، وقد أورد الدكتور محمد مندور نص عبارته فيه[2] . وهو يرد رأى قدامة فى أن المدح يجب أن يكون بالفضائل النفسية دون أوصاف الجسم فى البهاء والزينة . قال : «وقد غلط بعض المتقدمين فى هذا الباب ممن ألف فى نقد الشعر كتابا ، غلطا فاحشا ، فذكر ان المدح بالحسن والجمال ، والذم بالقبح والدمامة ، ليس بمدح على الحقيقة ولا ذم على الصحة ؛ وخطأ كل من يمدح بهذا أو يذم بذاك ، فمدل بهذا المعنى عن مذاهب الأمم كلها : عربها وعجمها ، وأسقط اكثر مدح العرب وهجائها ، وقد بينت قبح غلطه فى هذا تبيينا شافيا مستقصى فى كتاب مفرد » .

فهذا هو كتاب الآمدى « تبيين غلط قدامة بن جعفر » قدر ما تؤدى الينا عنه هذه الاشارات المقتضبة ، على اننا نرى فى بعضها انه من الكتب التى سبقت فى التأليف كتاب الموازنة .

ومن هذه الكتب التى كتبها صاحبنا فى نقد بعض ما كان يكتبه علماء الأدب المعاصرون كتاب «الرد على ابن عمار، فيما خطأ فيه ابا تمام» . وابن عمار هذا الذى كتب الآمدى فى الرد عليه هذا الكتاب هو أبو العباس، أحمد بن عبيدالله بن محمد بن عمار القطربلى، المتوفى سنة ٣١٤ ، وكان أحد تلاميذ محمد بن داود بن الجراح[3] . وقد عرض له الآمدى فى « الموازنة » ، فى سياق المقدمة التى قدم بها الجزء الثانى ، فى أثناء كلامه عن تعصب المتعصبين على أبى تمام ، فقال : « وتجاوز ذلك بعضهم الى القدح فى الجيد من

(١) الموازنة ص ٢٦١ — (٢) النقد المنهجى عند العرب، ص ١٠٧
(٣) انظر ترجمة ابن عمار فى تاريخ بغداد ٤ : ٢٥٢

شعره ، وطعن فيما لا يطعن عليه ، واحتج بما لا تقوم حجة به ؛ ولم يقنع بذلك مذاكرة ولا قولا ، حتى الف فى ذلك كتابا ، وهو أبو العباس احمد بن عبيد الله بن محمد بن عمار القطربلى ، المعروف بالفريد[1] . ثم ما علمته وضع يده من غلطه وخطئه الا على ابيات يسيره ولم يقم على ذلك الحجة ، ولم يهتد لشرح العلة ، ولم يتجاوز فيما نعاه بعدها عليه الابيات التى تتضمن بعد الاستعارة وهجين اللفظ . وقد بينت خطأه فيما انكر من الصواب فى جزء مفرد ، ان احب القارى أن يجعله من جملة هذا الكتاب فعل ذلك ان شاء الله تعالى . فالذى تضمن يدخل فى محاسن أبى تمام التى ذكرت انى اختم كتابى بها وبمحاسن البحترى»[2] . ثم يأخذ الآمدى بعد ذلك فى ايراد الابيات التى انكرها ابو العباس ابن عمار ولم يقم الحجة فى تبيين خطئها واظهار العيب فيها ، وهى ثلاثة ابيات افاض الآمدى فى التعليق على قول ابن عمار فيها ، مما يؤدى لنا ــ على أى حال ــ صورة من منهجه وأسلوبه فى هذا الكتاب الذى لم يصل الينا .

ومن هذه الكتب أيضا «كتاب ما فى عيار الشعر لابن طباطبا من الخطأ» . وابن طباطبا المعنى هنا هو أبو الحسن ، محمد بن أحمد بن طباطبا العلوى ، « شاعر مفلق ، وعالم محقق ، شائع الشعر نبيه الذكر ، مولده باصبهان ، وبها مات سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة» كما يقول ياقوت فى صفته[3] وقد ذكر بين ما ذكر من كتبه «عيار الشعر » هذا الذى كتب عليه الآمدى كتابه الذى لم يصل بعد الينا ، ولم نقع بعد على ما قد يمثله لنا .

أما كتاب عيار الشعر نفسه فهو كتاب من الكتب الجيدة ذات الشخصية الواضحة القوية فى الكلام عن الفن الشعرى . وقد بقيت لنا منه نسخة مخطوطة ، نرجو أن نوفق الى نشرها قريبا ، ان شاء الله[4] .

---

(١) كذا جاءت الكلمة (الفريد) فى النسخة المطبوعة ، وهى مصحفة عن « العزير »، فقد كان يلقب ، كما فى تاريخ بغداد ، بحمار العزير . وقد أورد الخطيب بيتين لابن الرومى فيه ، وهما :

وفى ابن عمار عزيرية ... يخاصم الدهر بها والقدر
ما كان لم كان ؟ وما لم يكن ... لم لم يكن ؟ فهو وكيل البشر

(٢) الموازنة ، ص ١٤٦ ــ (٣) معجم الأدباء ١٧ : ١٤٣

(٤) وقد نشر هذا الكتاب أخيرا بمشاركة الصديق الدكتور محمد زغلول سلام ، وأصدرته المكتبة التجارية بالقاهرة .

وكما كتب الآمدى فى هذا النحو من انحاء النقد الأدبى ، كتب فى الموازنات الادبية ، وهى باب واسع من أبواب النقد الأدبى عند العرب ، بدأ ساذجا ثم مازال يتعقد شيئا فشيئا ، اذ جعل يستجيب لمظاهر التطور المختلفة ، حتى بلغ به صاحبنا هذا المبلغ الرائع الذى نراه فى كتابه هذا الذى نعقد له هذا البحث ، كما يذكر له كتاب آخر لم يصل الينا ، اسمه « تفضيل شعر امرىء القيس على الجاهليين » .

فأما كتاب «الموازنة بين الطائيين» ، فهو أحد كتابيه اللذين وصلا الينا ، وثانيهما هو كتاب « المؤتلف والمختلف فى اسماء الشعراء وكناهم والقابهم وانسابهم وبعض شعرهم »[1] . وقد قال فى مقدمته تعريفا بموضوعه ومنهجه : « هذا كتاب ذكرت فيه المؤتلف والمختلف والمتقارب فى اللفظ والمعنى ، والمتشابه الحروف فى الكتابة ، من أسماء الشعراء واسماء آبائهم وامهاتهم ، والقابهم مما يفصل بينه الشكل والنقط واختلاف الابنية . وانما ذكرت من الأسماء والألقاب ما كانت له نباهة وغرابة ، وكان قليلا فى تسميتهم وتلقيبهم ، وكانوا اذا ذكروه ذكروه مفردا عن اسم الاب والقبيلة لشهرته» . وظاهر انه اتبع فى تأليف هذا الكتاب اسلوبا من اساليب علماء الحديث فى التأليف فى الرجال وتصنيفهم ، وقد تحدث فيه عن ستمائة وخمسة وتسعين شاعرا ، يندرجون جميعا تحت الشريطة التى اشترطها ، ويقعون فى النسق الذى وضعه .

واذا كان كتاب الموازنة يكشف لنا عن ذوقه ورهافة حسه ومبلغ دقته ، فهذا الكتاب يكشف لنا عن علم بالأدب واسع ، ومعرفة بالرواية دقيقة ، واحاطة بدقائق التراث الادبى شاملة ، مما اتاح له أن يتبوأ ذلك المكان الذى تبوأه فى البصرة ، اذ انتهت اليه فيها رواية الأخبار والاشعار القديمة . وذلك فيما نرى عنصر من أصل العناصر فى تكوين شخصيته الناقدة التى انتجت لنا كتابه الخالد : « الموازنة بين الطائيين » .

---

(١) طبعته مكتبة القدسى بالقاهره سنة ١٣٥٤ هـ ، بتصحيح وتعليق الاستاذ ف ، كرنكو ، وان كانت تعليقاته المنشورة ليست الا جزءا مما كتبه ، وقد توسع فيها « بما يدل على عناية فائقة وجهد عظيم » كما يقول الناشر .

وبعد ، فلعلنا استطعنا فيما قدمنا أن نتبين شخصية الآمدى ومقوماتها وابرز سماتها ونواحى نشاطها ، وأن نتعرف الصلات التى تربط بين ذلك كله وبين الناحية النقدية فيه . وبنا الآن أن نتلمس الملابسات التى لابست ابا القاسم فى الاتجاه الى وضع هذا الكتاب ، لنخلص من ذلك الى الكتاب نفسه .

ولقد أشرنا من قبل الى السبب الأعم الحافز الى اثارة هذا الموضوع الذى بنى عليه كتابه، وهو أن الكلام عن ابى تمام والخصومة حوله هو فى حقيقته وجه من وجوه الكلام عن قضية التجديد فى الشعر . وهى قضية متجددة دائما . وهذا الى أن تجديد أبى تمام يصدر فى معظمه عن ذلك النزوع العقلى الذى أخذ يغلب على الحياة الاسلامية، وجعل يدعو الى تحكيم النظرة المتفلسفة المتعمقة الفاحصة. واذا كان هذا النزوع العقلى قد بدأ منذ القرن الثانى ، فانه ما زال ينمو ويتغلغل حتى أخذ فى القرن الرابع صورة بارزة قوية ، فلا جرم كان فى ذلك ما يقوى ذلك الحافز الأول الى الكلام عن مذهب ابى تمام ، ومناقشة تلك القضية .

كما أشرنا من قبل أيضا الى حركة التأليف التى أثارتها هذه الخصومة ، وظلت ماضية متصلة الى ايام الآمدى ، وقد كان هو بطبيعة اتجاهه الى الدراسات الأدبية متصلا بهذه الحركة ، فلا جرم استطاعت أن تجتذب به اليها ، وتثير فى نفسه الرغبة الى المشاركة فيها ، بالمناقشة وابداء الرأى ، سواء بالحديث فى المجالس والمناظرة فى الاندية ، أم بكتابة الرسائل والكتب . وقد رأينا منذ قليل ان له كتابا كتبه قبل أن يكتب الموازنة فى الرد على ابن عمار فيما خطأ فيه ابا تمام .

وهنا موضع الكلام عن أحد الكتب التى كتبت فى ايامه عن ابى تمام، وكانت تعبيرا عن تلك الخصومة واستجابة لها ، وهو كتاب « اخبار أبى تمام » لأبى بكر محمد بن يحيى الصولى ، المتوفى سنة ٣٣٥ أو سنة ٣٣٦ . وقد وضعه وهو يريد به الانتصار لأبى تمام من خصومه . ومثل هذا الكتاب لا ينبغى أن يفوت الباحث عن الاعتبارات المختلفة التى لابست تأليف الآمدى للموازنة ، ان يجعله فى باله .

وقد رجح ناشرو هذا الكتاب ، فيما قدموا له ، أنه وضعه فى آخر أيامه ، وذلك اذ يقولون : « ونرجح ان يكون الصولى ألف هذا الكتاب فى ايام محنته التى اشرنا اليها ، أى فى أواخر ايامه ، حين خرج من بغداد مغضوبا عليه ، فهو يقول لأبى الليث مزاحم بن فاتك الذى قدم له الكتاب : « ... ثم أرتنى عين الرأى بقية فى نفسك لم يطلعها لى لسانك ، اما كراهة منك لتعبى ، أو اشفاقا من الزيادة فى شغلى ، مع ما يتقسمنى من جور الزمان وجفاء السلطان وتغير الاخوان»

وأيام المحنة التى تشير هذه العبارة اليها هى التى خرج فيها الى البصرة ، بعد ان ضاقت بغداد عليه ، كما ذكر ذلك الخطيب وياقوت فيما أورداه ترجمة له[1] .

واذا صح هذا الفرض كان علينا أن نعرف تاريخ رحيله من بغداد الى البصرة ليكون فى ذلك ما يعيننا فى معرفة الفترة التى كتب فيها كتابه . وليس هناك نص يذكر هذا التاريخ ، وانما نستنتجه استنتاجا من انه لم يشر الى أى شىء يدل عليه فى سياق ما كتبه فى كتابه « الأوراق » من اخبار الراضى بالله والمتقى لله ، مع انه لم يفته أن يسجل فى خلال ذلك حياته الخاصة ، واذن فان هذا الرحيل عن بغداد لم يحدث الا بعد عهد المتقى لله ، أى بعد سنة ٣٣٣ . واذن فكتاب « أخبار ابى تمام » انما كتبه الصولى فى فترة تقع بين هذه السنة وسنة وفاته ، وهى ٣٣٥ أو ٣٣٦ . ويكون بذلك وثيق الصلة بالآمدى ، لا من ناحية موضوعه فحسب ، بل لأن الصولى كتبه بين عينى الآمدى وبصره ، فقد كتبه بالبصرة وشهد الآمدى مولده ، وذلك أجدر ان يثير فى نفسه التفكير فى موضوعه ، وترديد النظر فى مسائله .

على أن هذا الفرض ليس ، عندنا ، مما يطمأن اليه ، اذ كان لا يصح الا اذا صح أن حياة الصولى استمرت هانئة هادئة مستقرة لم يتخللها عناء ولم تعترضها محنة الا تلك التى اعترضت حياته فى آخرها، فحملته على الخروج الى البصرة ، وليس هذا — فيما يبدو — صحيحا . فقد تعرض الصولى غير مرة « لجور الزمان وجفاء السلطان وتغير الاخوان » ، وهو ما يزال فى بغداد : تعرض لذلك بعد عهد الراضى بالله ، كما يبدو ذلك واضحا فيما حكاه عن نفسه فى سياق ما كتبه من أخبار المتقى لله ،

(١) تاريخ بغداد ٣ : ٤٣٢ ، معجم الأدباء ١٩ : ١١١

كما تعرض له قبل عهد الراضى ، على النحو الذى يعرضه علينا شعره فى مدح هذا الخليفة .

فما ينبغى اذن ان يكون لتاريخ كتاب الصولى شأن فيما نحن فيه من تلمس الملابسات التى كان لها أثرها فى اتجاه الآمدى الى وضع كتابه « الموازنة » وتأليفه. والواقع ان هذا الشأن للكتاب نفسه ايا كان زمان كتابته ومكانها . فقد كان الصولى والآمدى يمثلان فى الحياة الأدبية فى القرن الرابع طرفين مختلفين كل الاختلاف ، فى المزاج العقلى والطبع والخلق واسلوب الحياة ، فمن الطبيعى أن صنيعا يصنعه الصولى لابد ان يتردد صداه عند الآمدى فى الصورة التى يكيفها مزاجه وطبيعته .

وقد أشرنا من قبل ، عند الكلام على شيوخ الآمدى ، الى ما كان بين أحد شيوخه هؤلاء ، وهو ابو موسى الحامض ، وبين ابى بكر الصولى من منافسه ومحاسدة وبغضاء ، وأن الحامض كان ما يزال يقع فى الصولى نبزا له وتعريضا به . ويذهب الأستاذ محمد عبده عزام فى المقدمة التى كتبها لديوان ابى تمام الى ان ذلك ربما كان له اثره فيما كان بين الآمدى والصولى ، اذ يقول : « وربما كان لهذه التلمذة أثر فيما كان بين هذين الرجلين : الصولى والآمدى ، من عداوة ، حتى لكأنما اتخذا من أبى تمام ميدانا للجدل والمخاصمة»[1] . فان صح هذا الذى يستظهره الأستاذ عزام، وهو — فيما يبدو — قريب جار مع منطق الامور، فان ازورار الآمدى عن الصولى وسوء رأيه فيه شىء قديم ، وقد ظل كامنا منذ ذلك الوقت الذى كان يجلس فيه الى استاذه أبى موسى الحامض، وهو ما يزال بعد شاباغض الاهاب، قريب عهد بهذه البيئة الجديدة فى بغداد، مقبلا عليها معجبا بها، وانه ليستمع من استاذه — بين ما يستمع اليه — رأيه فى ابى بكر الصولى ، يعرض حينا ويصرح حينا آخر ، بلسانه الحاد وعبارته اللاذعة . حتى اذا ما ظهر كتاب الصولى عن ابى تمام كان من الطبيعى أن يثير ظهوره هذه الآثار الكامنة فى أعماق نفسه ، ويبتعث تلك البغضاء القديمة التى بقيت فى صدره ميراثا ورثه عن استاذه أبى موسى الحامض ، ويكون

(١) ديوان ابى تمام بشرح الخطيب التبريزى ١ : ٢٥ (المقدمة)، ط دار المعارف، ١٩٥١

ذلك من العوامل أو الملابسات التى دفعت به الى وضع كتابه الموازنة ، ولو على غير وعى منه ، وان تأخر عهده .

ولعله مما يؤازر هذا الفرض ويمكن له ما يذهب اليه الدكتور محمد مندور من « ان كثيرا من اقوال انصار ابى تمام (يعنى فى كتاب الموازنة) ما هى الا تلخيص لأقوال الصولى فى اخبار ابى تمام »[1] .

بل انا لنستطيع فوق ذلك أن نلمح فى كتاب الموازنة شيئا من أصداء هذه العداوة القديمة الموروثة ، على تراخى العهد ، فى غير موضع منه ، فنحن نشعر شعورا قويا باللهجة الساخرة التى يحيط بها الآمدى اسم الصولى حين يرد اسمه على لسانه — وقلما يذكره باسمه — كقوله ، وهو يتكلم عن بيت من شعر أبى تمام رابته روايته، ووقع فى خلده ان تصحيفا أصابه : «حتى رجعت الى النسخ العتيقة التى لم تقع فى يد الصولى وأضرابه ، فوجدت البيت فى غير نسخة مثبتا على هذا الخطأ»[2]. فهذه عبارة تنضح بالسخرية. وانه ليتضح لنا ذلك حين نعرف أن الصولى كان — فيما عرف عنه واشتهر به — عريض الدعوى فى كل ما يتصل بتحقيق الشعر . وقد كان فيما يكتب ما يحقق هذا الذى ذاع عنه ، كقوله مخاطبا ابا الليث : « وليس يجب — أعزك الله — أن تنظر الى اختلاف الناس فى ابى تمام ، واضطراب روايتهم لشعره ، فانهم بعد اتمام هذه النسخة يجتمعون عليها ويسقطون غيرها ، كما كانوا مختلفين فى شعر أبى نواس وأخباره ، ثم قد اجتمعوا عليه بعد فراغى منه ، حتى ان النسخة من شعره من غير ما عملته لتباع بدراهم، وقد كانت قبل ذلك تباع بعددها دنانير، ولعلها بعد قليل تفقد فلا ترى وتسقط فلا تراد»[3] ففى هذه العبارة من ثقل الدعوى ما هو واضح جلى .

ومن هذه الاصداء التى نحسها فى كتاب الموازنة ، صادرة عن تلك الكراهية القديمة ، قوله فى سياق حديثه عن الشعر وأسباب ذوقه ووسائل نقده والحكم عليه: « وبعد ، فلم لا تصدق نفسك ايها المدعى ، وتعرفنا من اين طرأ لك الشعر . أمن

(١) النقد المنهجى عند العرب ص ٨٣ ، ط مكتبة النهضة — (٢) الموازنة ، ص ١٩٢
(٣) أخبار ابى تمام ، ص ٥٧ — ٥٨

أجل أن عندك خزانة كتب تشتمل على عدة من دواوين الشعراء؟»[1]، كما يذهب الاستاذ محمد عبده عزام الى انه يعنى بذلك ابا بكر الصـــولى [2] ، وهو مذهب قريب سائغ لا تكلف فيه ان يكون بهذه العبارة انما ينظر الى الصولى فى تهكم وسخرية ، كما تدل على ذلك هذه الاشارة الى خزانة كتبه . وهى اشارة الى ما شاع فى الناس عنها من اعتداده بها ، واعتزازه بمحتوياتها ، وعنايته الشديدة بترتيبها وتنظيمها ، حتى أصبح ذلك موضع التندر من خصومه ومن اصحاب العبث والسخرية ، كما نرى فى هذه الابيات التى قالها فيه ابو سعيد العقيلى :

انمـــا الصـــولى شيـــخ ... أعلـــم النـــاس خزانـــة
ان ســـألناه بعلـــم ... نبتـــغى عنـــه الا بـــانه
قال : يا غلمـــان هـــاتوا ... رزمـــة العلـــم فلانـــة[3]

وبذلك نرى أن « أخبار ابى تمام » للصـــولى تعتبر من أدنى الملابســـات التى لابست الآمدى فى وضع كتابه « الموازنة » . ولعل الكتاب حين ينشر كاملا يمكن ان يؤدى الينا غير ذلك من الاصداء .

والى جانب حركة التأليف هذه كانت هنالك المجالس الأدبية التى تدور فيهـــا المناظرة حول ابى تمام والبحترى . وقد رأينا ما كان من مثل ابى رياش اليمامى فى ذلك . كما أن الآمدى يشير فى غير موضع من كلامه الى هذه المجالس ، فمن ذلك ما قاله فى سياق كلامه عن بيت ابى تمام :

الـــود للقـــربى ، ولكن عرفـــه ... للأبعـــد الأوطـــان دون الاقرب

« وقد عارضنى فى هذا البيت غير واحد ممن ينتحل نصرة ابى تمام » ثم أورد صورة من الحوار الذى دار بينه وبينهم فى ذلك[4] . ومن ذلك أيضـــا قوله ، بعد أن بسط رأيه فى هذا البيت :

رضيت، وهل أرضى اذا كان مسخطى ... من الأمر ما فيه رضـــا من له الأمـــر

(١) الموازنة ص ٣٨٦ ــ (٢) ديوان ابى تمام بشرح التبريزى ، ص ٢٣ (المقدمة)
(٣) معجم الادباء ١٩ : ١١١ ــ (٤) الموازنة ص ١٥٥

« وقد استقصيت القول فى هذا البيت ، وما ذكره النحويون وسيبويه وغيره فى معنى قد وهل ولخصته فى جزء مفرده وانما فعلت ذلك لكثرة من عارضنى فيه، وادعى الدعاوى الباطلة فى الاحتجاج لصحته »[1] .

فقد كانت مجالس العلم اذن حافلة بالمناظرة حول هذا البيت وذاك من شعر ابى تمام ، وكانت المناقشات ما تفتأ تدور حول ما يفيده هذا البيت من معنى ، ومبلـــغ الصلة بين لفظه ومعناه ، مرددة اقوال النحاة واللغويين فى التقرير والحجاج ، وكان فى هذه المناظرات ما يحفز الى التأليف فى موضـــوعها ، ويثير الرغبة فى تسجيلهـــا وتحرير القول فيها ، كما صنع الآمدى فيما دار حول ذلك البيت .

واذن فقد كان الجو فى بيئات البصرة الأدبية مغمورا بتلك الخصـــومة القديمة على النحو الذى رأينا صورة منه . ثم جاءت خصومة جديدة حول شاعر جديد هو المتنبى ، فزادت الخصومة القديمة حدة على حدة ونشاطا على نشاط . وبين مذهب المتنبى الأدبى ومذهب أبى تمام وشائج قربى ، فكان المحتجون للمتنبى والمعتذرون عنه يتخذون من أبى تمام ذريعة لهم، واذن فقد جاءت هذه الخصومة الأدبية الجديدة بمادة جديدة ، فزادت النار وقودا ، وأعـــادت الحرب جذعة ، بدلا من أن تصرف الناس عنها ، لتجندهم لها وتحشدهم فى ميدانها .

ولا ريب ان مثل هذا الجو كان جديرا بأن يثير الآمدى الى ان يسهم فى هذه الحركة الادبية النشيطة بعمل كبير حاسم، وهو الذى شغلت هذه الحركة مكانا ظاهرا فى حياته، وأخذت بنصيب غير قليل من تفكيره . وقد كانت الرغبة فى الموازنة بين الشاعرين قد حملته على أن يدون كل ما يراه رائعا من شعرهمـــا ، كل بازاء الآخر ، على مر الأوقات ، ليرى بوضـــوح فى آخر الأمر مجموعة محاسن هـــذا ، مقابلة بمجموعة محاسن ذاك ، على نمط دقيق منتظم ، كما يقرر هو ذلك عن نفسه فى موضـــع من كتابه[2] . كأنما كان يمهد منذ ذلك الوقت على هذه الصورة لوضـــع كتابه هـــذا :

(١) الموازنة ، ص ١٩١ ــ (٢) الموازنة ، ص ٤٤

« الموازنة بين الطائيين » .

— ٨ —

وهكذا وضع الآمدى كتابه هذا استجابة لهذه الحوافز الادبية القوية التى اتخذت صورا مختلفة، والتى كانت ما زالت تعمل فى نفسه وتدفع به وتوجهه، وان يكن صدره بما يشير الى ان شخصا بعينه قد رغب اليه فيه، وحثه على صنعه، اذ يقول : « هذا ما حثثت — ادام الله لك العز والتأييد والتوفيق والتسديد — على تقديمه من الموازنة بين أبى تمام حبيب بن أوس الطائى ، وأبى عبادة الوليد بن عبيد الله البحترى » . وليس يعنينا كثيرا أن نتلمس السبل الى معرفة هذا الرجل، فانما الشأن الأول عندنا فى هذه الدراسة هو تبين الملابسات الخارجية والنفسية التى لابست وضع هذا الكتاب ، وتعرف مقومات الشخصية التى أنشأته .

ولعل ما أسلفناه من سيرة الآمدى يبين لنا أن شخصيته كان يغلب عليها الطابع الادبى والنزوع الفنى ، فهو شاعر يحسن قول الشعر ، ويجيد التعبير عن مشاعره ، ويعرف كيف يسخر السخرية اللاذعة ، وهو — فى هذا القدر الذى بلغنا من شعره — شاعر مطبوع لا تكلف فى شعره ولا تعسف ولا تعقيد . كما رأينا أن الثقافة الادبية التى عرض لها او عرضت له قبل ان يترك البصرة الى بغداد انما كانت ثقافة أقرب الى الفن الخالص منها الى الدرس العلمى أو المعاناة العقلية ، فاكثر الرواة الذين كان يؤخذ عنهم الشعر القديم ويرجع اليهم فيه كانوا أيضا شعراء مطبوعين كابن دريد وابن لنكك والمفجع البصرى ، وكانوا فى شعرهم يؤثرون الديباجة الجيدة الرائعة والمعانى القريبة التى لا تكلف فيها ولا اجتلاب لها . ومن ذلك جرت نزعته الفنية وثقافته الادبية ابان نشأته الأولى فى البصرة فى مجرى واحد ، متساوقتين تغذو الواحدة منهما الاخرى ، حتى اذا مضى الى بغداد يلتمس لشخصيته أسباب التكمل فيها بطلب النحو والجلوس الى النحاة والاتصال بتلك الثقافات العلمية المختلفة التى كانت بغداد مركزا لها ، كانت له شخصيته الادبية الناضجة . ولكن

هذه الدراسة لم تخله بطبيعة الحال من آثارها، فأسبغت على هذه الشخصية رداءا علميا ، وأخذت عقله بالتنظيم والتحرير والتعمق وحب الاستقصاء . ثم جاءت صحبته لأبى جعفر الضبى فوسعت آفاقه ، وعدلت هذه المقادير فى نفسه ، ووازنت بين النوازع المختلفة عنده ، وهيأته لذلك المكان الذى استقر به أخيرا : مكان الناقد الأدبى المستقل الرصين المتزن ، على النحو الذى نراه فى كتابه هذا .

وقد رسم الآمدى خطة الكتاب على نحو أراد به أن يضع أمام القارىء المواد التى تمكنه من الفصل فى هذه الخصومة الشعرية على هدى وبصيرة ، فهو يبدؤه بنوع من المقدمة يذكر فيها بعض القضايا العامة فى هذه الخصومة ، ويحكى فيها ما كان يدور بين طرفى الخصومة من احتجاجات لها ومناظرات عليها ، كدعوى ان ابا تمام صاحب مذهب فى الشعر ، ومدى ذلك ، وقضية الشعر والعلم ، ومبلغ ما بينهما من تعاضد أو تعارض وتدافع، اذ كان أبو تمام شاعرا عالما ، الى غير ذلك مما تثيره « كل فرقة من اصحاب هذين الشاعرين على الفرقة الأخرى ، عند تخاصمهم فى تفضيل احدهما على الآخر ، وما ينعاه بعض على بعض » . وقد صرح هو فى هذه المقدمة ، أوما نعتبره نحن كالمقدمة ، بانه انما يفعل ذلك « ليزداد القارىء بصيرة وقوة فى حكمه ان شاء أن يحكم ، واعتقاده فيما لعله يعتقد احتجاج الخصمين به » . فقد وقف نفسه كما نرى منذ البدء فى موقف من يمد القارىء بمواد الخصومة ، ليكون القارىء نفسه هو الحكم فيها . أترى كان ذلك أمره فى مجالس القضاء حين كان من كتابها ؟

فاذا فرغ من هذه المسائل العامة ومن عرض وجهتى النظر المختلفتين فى كل منها ، أخذ فى تصميم الكتاب ، وقد اختط لنفسه خطته فى تصميمه وبنائه على الصورة التى يعرضها فى بدايته ، اذ يقول :

« وانا ابتدىء بذكر مساوىء هذين الشاعرين لأختم بذكر محاسنهما ، واذكر طرفا من سرقات ابى تمام ، واحالاته ، وغلطه، وساقط شعره، ومساوىء البحترى فى أخذ ما أخذه من معانى ابى تمام ، وغير ذلك من غلطه فى بعض معانيه . ثم أوازن

من شعريهما بين قصيدتين اذا اتفقتا فى الوزن والقافية واعراب القافية، ثم بين معنى ومعنى ، فان محاسنهما تظهر فى تضاعيف ذلك ، ثم اذكر ما انفرد به كل واحد منهما من معنى سلكه ولم يسلكه صاحبه . وافرد بابا لما وقع فى شعريهما من التشبيه ، وبابا للأمثال ، اختم بهما الرسالة »[1]

وبهذا التخطيط الذى رسمه الآمدى لكتابه وضعه فى جزأين كبيرين : أحدهما يوازن فيه بين الشاعرين من ناحية المآخذ التى أخذت على كل منهما ، مع خاتمة مجملة يبين فيها ما قيل من فضل هذا وفضل ذاك ، والآخر يوازن فيه بينهما من ناحية قدرة كل واحد منهما وأسلوبه فى معالجة المعنى الواحد وأدائه .

فأما جزء المآخذ فقد جعله فى بابين كبيرين ، وان كانا متفاوتين تفاوتا شديدا، قدر تفاوت الرجلين عنده فى المآخذ عليهما: أولهما خاص بابى تمام والثانى خاص بالبحترى . وقد صنف مساوىء ابى تمام فى سبعة فصول ، وهى : (١) سرقاته[2] ، (٢) ما غلط فيه من المعانى والالفاظ[3]، (٣) قبيح الاستعارات[4]، (٤) قبيح التجنيس[5]، (٥) ما يستنكره من الطباق[6]، (٦) سوء النظم والتعقيد ووحشى الالفاظ[7]، (٧) الزحاف واضطراب الوزن[8] . فأما مساوىء شعر البحترى فقد صنفها فى اربعة فصول وهى : (١) سرقاته[9] ، (٢) ما أخطأ فيه من المعانى[10] ، (٣) ردى التجنيس وقبيحه[11] ، (٤) اضطراب الاوزان[12] .

وأما الجزء الثانى وهو الخاص بالموازنة بين الشاعرين من ناحية الديباجة الشعرية والتعبير عن المعانى فقد كانت خطته التى اختطها، كما رأينا فى عبارته التى أوردناها، أن يوازن « بين قصيدتين اذا اتفقتا فى الوزن والقافية واعراب القافية ، ثم بين معنى ومعنى » . فقد كان يريد اذن ان يصطنع نوعين من هذه الموازنة : الأول موازنة فى الديباجة والصياغة دون نظر الى المعنى ، والآخر موازنة بين أسلوب وأسلوب فى التعبير عن المعنى الواحد . كذلك كان يقدر ، ولكنه حين أخذ يواجه الأمر ويضع

(١) ص ٤٥ (٢) ص ٤٦ (٣) ص ١٢٤ (٤) ص ٢٢٨ (٥) ص ٢٤٨ (٦) ص ٢٥٦ (٧) ص ٢٦٠ (٨) ص ٢٧٢ (٩) ص ٢٧٧ (١٠) ص ٣٤٨ (١١) ص ٣٧٨ (١٢) ص ٣٨٠

خطته موضع التنفيذ ، وجد أن الموازنة فى الديباجة والصياغة دون اعتبار المعنى الذى صيغ له الشعر، ودون نظر الى غير الاتفاق فى الوزن والقافية واعراب القافية، خطأ لا مساغ له ، اذ لا بد مع ذلك « من اتفاق المعانى التى اليها المقصد ، وهى المرمى والغرض ، وهذا لا يكاد يتفق »[1] . لقد خدعت الرغبة فى التقسيم النظرى الآمدى عن حقيقة الأمر ، ولكنه لم يلبث على كل حال ان اكتشف هذه الخديعة ، ولم يكن بد من أن يعدل عن هذا النوع المحال من الموازنة، ومضى فى النوع الآخر .

ابتدأ هذا النوع بذكر ابتداءات القصائد، فصنف المعانى التى تشتمل عليها ، من الوقوف بالديار ، والتسليم على الآثار ، ووصف تعفية الازمان لها ، وبكاء الشاعر عليها ، الى غيره من المعانى والصور التى تتصل بهذا الموضوع . وبذلك تنتهى النسخة المطبوعة التى بين أيدينا من هذا الكتاب . ثم يبدأ فصلا آخر من فصول هذه الموازنة يعقده للجزء الثانى مما تشترك فيه القصيدة العربية، وهو الذى سماه «الخروج»، اذ ينتقل فيه الشاعر من الافتتاح الذى عقد له الآمدى الفصل الأول ، الى الموضوع الرئيسى الذى بنى القصيدة عليه وصاغها له . فاذا انتهى من هذين الجزأين المشتركين انتقل الى الجزء الثالث من أجزاء القصيدة، وهو موضوعها، وهذا الموضوع يندرج تحته كثير من الاغراض الشعرية ، وبدأ الآمدى منها بالمديح ، وبه تنتهى النسخة المخطوطة التى بين ايدينا ، ناقصة أيضا ، فلا تزال هناك بقية الاغراض الشعرية من الهجاء والرثاء والنسيب وما الى ذلك ، كما لا يزال هذلك الباب الذى وعد الآمدى أن يجعله فى ذكر « ما انفرد به كل واحد منهما من معنى سلكه ، ولم يسلكه صاحبه » ، ثم لا يزال هنالك فوق ذلك البابان اللذان قصد أن يجعلهما ختاما لكتابه، وهما بابا التشبيه والأمثال .

ومهما يكن من أمر فهذه هى خطة كتاب الموازنة ، وهذا هو الهيكل العام له، وهى خطة جيدة — كما نرى — فى تنظيمها وتقسيمها ، وهو هيكل تبدو فيه براعة الآمدى فى التبويب والتصنيف .

— ٩ —

أراد الآمدى بهذه الخطة أن يحقق ما قصد اليه بادىء ذى بدء، وهو أن يضع أمام القارىء ما يمكنه من الحكم فى الخصومة بين الشاعرين ، ويملكه الوسيلة الصحيحة

(١) الموازنة ص ٣٤٨

الى الفصل بينهما ، اذ كان هو لا يريد أن يقضى فى ذلك برأى ، أو يحمل القارىء على ما يذهب اليه فى ذلك من مذهب، وانما موقفه منها موقف الحيدة، فالأمر بينهما عنده أمر خلاف بين مذهبين ، قبل أن يكون أمر خلاف بين احسان واساءة ، أو بين جودة ورداءة. وفى ذلك يقول : « ولست أحب أن أطلق القول بأيهما أشعر عندى، لتباين الناس فى العلم ، واختلاف مذاهبهم فى الشعر . . . فان كنت — ادام الله سلامتك — ممن يفضل سهل الكلام وقريبه ، ويؤثر صحة السبك وحسن العبارة وحلو اللفظ وكثرة الماء والرونق ، فالبحترى أشعر عندك ضرورة ، وان كنت تميل الى الصنعة والمعانى الغامضة التى تستخرج بالغوص والفكرة ، ولا تلوى على غير ذلك، فأبو تمام عندك أشعر لا محالة. فأما انا فلست افصح بتفضيل احدهما على الآخر »[1] . ويقول فى موضع آخر : « وانا اذكر — باذن الله — الآن المعانى التى يتفق فيها الطائيان ، فأوازن بين معنى ومعنى، واقول ايهما اشعر فى ذلك المعنى بعينه فلا تطلبنى أن اتعدى هذا الى أن افصح لك بايهما أشعر عندى على الاطلاق ، فانى غير فاعل ذلك »[2]

فهل استطاع الآمدى أن يقف عند هذا الحد الذى التزمه، وان يلزم جانب الحيدة التى رسمها لنفسه ، فلا يفصح برأيه ، ولا ينصر جانبا على جانب ؟ ذلك مطلب ولا ريب عسير كل العسر ، ولا سيما فى المسائل الادبية التى تتصل بالوجدان أوثق اتصال . وانا لندرك مبلغ ما حمل الرجل على نفسه وهو يحملها على هذا المحمل ويريد أن يدفعها فى تلك السبيل . وانا لنتمثل هذا العنت حين نستمع اليه وهو يدعو الله أن يقويه فيما هو بسبيله ، وذلك اذ يقول فى موضع من كتابه : « وبالله استعين على مجاهدة النفس ، ومخالفة الهوى ، وترك التحامل ، فانه — جل اسمه — حسبى ونعم الوكيل »[3]

وانا لنعلم أن نزعة الرجل الأدبية كانت تجعله «ممن يفضل سهل الكلام وقريبه ، ويؤثر صحة السبك وحسن العبارة وحلو اللفظ وكثرة الماء والرونق » ، وممن يرى أن كلام الأوائل وأسلوبهم هو المقياس الأول الذى ينبغى أن يقاس به الشعر ،

(١) ص ٤ — ٥ — (٢) ص ٣٨٣ — (٣) ص ٣٩٦

وتفضل به عبارة عبارة، كما يبدو ذلك فى غير موضع من كتابه، فهو بذلك يحترى الهوى ، « لأن البحترى أعرابى الشعر مطبوع ، وعلى مذهب الأوائل ، وما فارق عمود الشعر المعروف، وكان يتجنب التعقيد ومستكره الألفاظ ووحشى الكلام» . [1] وبذلك كله نرى أى غاية صعبة قصدها ، وأى سبيل وعرة سلكها ، وأى أمانة ثقيلة احتملها ، حين رسم لنفسه أن يقف من الشاعرين موقفا وسطا .

وقد استطاع الآمدى بهذا المنهج الذى اختطه أن يحقق هذه الغاية الى حد غير قليل ، كما استطاع بهذا الذى أخذ به نفسه من القصد الى الانصاف أن ينصف ابا تمام فى غير موضع ، وان يقف من المتعصبين عليه موقف المدافع عنه ، فى مثل موقفه من أبى العباس أحمد بن عبيد الله بن عمار القطربلى فى كتابه الذى أشرنا اليه من قبل، وقد جعله جزءا من الموازنة . واذا كان هذا الجزء لم يصل الينا ، فان فى حديث الآمدى عنه ما يدل على روح الانصاف التى كان يصطنعها أزاء هذه الخصومة .

وقد كان حديثه عنه فى سياق الحديث عن ابى تمام والأسباب التى أدت الى كثرة غلطه واحالته ، قال : « وافرط المتعصبون له فى تفضيله ، وقدموه على من هو فوقه من أجل جيده ، وسامحوا فى رديئه ، وتجاوزوا له عن خطئه ، وتأولوا له التأويل البعيد فيه، وقابل المنحرفون عنه افراطا بافراط، فبخسوه حقه، واطرحوا احسانه، ونعوا سيئاته ، وقدموا عليه من هو دونه ، وتجاوز ذلك بعضهم الى القدح فى الجيد من شعره ، وطعن فيما لا يطعن عليه ، واحتج بما لا تقوم حجة به ، ولم يقنع بذلك بمذاكرة ولا قولا حتى الف فى ذلك كتابا»[2] الى آخر ما أوردنا من ذلك النص قبل .

ومن مظاهر روح الانصاف وتوخى المعدلة له فى كتابه ما جاء فى الفصل الذى عقده عقب كلامه عن سرقات أبى تمام ، مناقشا فيه ما خرجه ابن ابى طاهر من ذلك ، «فأصاب فى بعضها واخطأ فى البعض» على حد قوله، اذ كان «مما نسبه فيه ابن ابى طاهر الى السرق ما ليس بمسروق، لأنه مما يشترك فيه الناس من المعانى والجرى على السنتهم، ومنه ما نسبه الى السرق والمعنيان مختلفان»[3] وقد ناقش ما جاء من هذا القبيل ، وابطل دعوى ابن ابى طاهر السرقة فيه ، ايثارا للانصاف ، وتوخيا للمعدلة ، بعد أن أورد ما يراه مصيبا فيه .

(١) ص ٤ — (٢) ص ١٢٤ — (٣) ص ١١١

وكما كان من انصافه أن أورد ما ذكره ابن ابى طاهر من سرقات ابى تمام مناقشا ما رآه مخطئا فيه منها ، كذلك كان موقفه من ابى الضياء بشر بن تميم ، فيما أورد من سرقات البحترى ،مما أخذه من ابى تمام خاصة ، فقد ذكر منها ما رآه جائزا ، وناقش منها ما رآه متعسفا [1]

وكذلك تبدو روح الانصاف عنده ظاهرة جلية فيما عمد اليه من الموازنة بين ابى تمام والبحترى فى المعانى الشعرية ، وانما تتبين هذه الروح على وجهها ونقدرها قدرها اذا عرفنا انه بحترى الهوى كما سبق القول، وكما يبدو فى مواضع من الكتاب مختلفة ، ومع ذلك فانه لا يعفى البحترى من النقد أحيانا فى هذه الموازنة ، كالذى نرى من ذلك فى نقد احد أبياته فى الابتداء بذكر الوقوف غير مترفق به ، وان شهد له بحسن اللفظ، وفى مناقشة المدافعين عن البحترى والمحتجين له والمعتذرين عنه مناقشة لا يتحرج فيها من أن يستشهد بشعر أبى تمام ، منوها به، غير ملق بالا الى نزعته البحترية [2]

فاذا انتقل الى الفصل الذى يلى هذا الفصل ، وهو « التسليم على الديار » نراه يعلق على أحد ابيات أبى تمام بهذه الشهادة القوية القاطعة فى نصرة ابى تمام : «هذا المصراع الأول فى غاية الجودة والبراعة والحسن والحلاوة، وعجز البيت أيضا جيد بالغ»[3]، وفى حين ذكر للبحترى فى هذه الموازنة اربعة ابيات ، قضى لاثنين منها بقوله : « وهذا ابتداءان جيدان » وسكت ، وللثالث بقوله : «وهذا ابتداء صالح»، وقضى على الرابع بقوله : «وهذا البيت ردىء» . فاذا ما انتهى من هذا الفصل كانت كلمته الأخيرة أن قضى لأبى تمام على البحترى ، اذ يقول : « فهذا ما وجدته من تسليمهما على الديار، وأبو تمام عندى فى قوله: (دمن الم بها فقال سلام) أشعر من البحترى فى سائر ابياته » [4]

هذه بعض ما نرى فى كتاب الآمدى من مظاهر الانصاف التى أخذ ابو القاسم بها نفسه ، منذ وضع نفسه من هذه الخصومة فى ذلك الموضع . وكأن الأصل فى هذا هو انصافه لنفسه أولا ، فله شخصيته الأدبية التى لا يمكن أن يهدرها ، وله ذوقه الفنى الذى لا يجوز أن يلغيه ، وبهذه الشخصية كان ينتصف احيانا من البحترى

(١) ص ٢٩٠ ـ ٣٤٧ — (٢) ص ٤٠٠ ـ ٤٠٥ — (٣) ص ٤٠٧ — (٤) ص ٤١٠

لأبى تمام ، وبها كان يناقش أيضا شعر أبى تمام ، مما جاء على خلاف مذهبه الفنى. ومن ذلك ما نرى من اعترافه ان شعر ابى تمام ليس جاريا كله ولا اكثره فى هذا المجرى الذى ينكره ، بل ان الاكثر يعد من الروائع الشعرية فى عصره ، وهو يقول فى هذا : « ... ولو كان أخذ عفو هذه الأشياء ، ولم يوغل فيها ، ولم يجاذب الألفاظ والمعانى مجاذبة ، ويقتسرها مكارهة ، وتناول ما يسمح به خاطره وهو بجهامه غير متعب ولا مكدود ، وأورد من الاستعارات ما قرب فى حسن ولم يفحش، واقتصر من القول على ما كان محذوا حذو الشعراء المحسنين، ليسلم من هذه الأشياء التى تهجن الشعر وتذهب ماءه ورونقه ــ ولعل ذلك أن يكون ثلث شعره أو اكثر منه ــ لظننته كان يتقدم عند أهل العلم بالشعر اكثر الشعراء المتأخرين، وكان قليله حينئذ يقوم مقام كثير غيره ، لما فيه من لطف المعانى ومستغرب الألفاظ» . فهو اذن لا يرفض ابا تمام جملة، كما كان ابو رياش يرفض الشعر المحدث جملة، وانما يرفض من شعره مالا يتفق وشخصيته الادبية .

فالآمدى فيما يقبل ويرفض جار مع شخصيته منصف لها . وليس يمكن القول بان فى رفضه مارفض من شعر ابى تمام خروجا على الانصاف الذى التزمه، اذ ما كان من الممكن أن نطلب الى ناقد أدبى أن يلغى شخصيته ويهدر مقومات مذهبه الفنى فيما ينقد من آثار وما يقرر من رأى . والناقد ما دام فى هذا فهو فى نصابه الطبيعى ، لا يمكن أن نرميه بالتعصب أو مجانبة النصفة . وكذلك الآمدى عندنا ، فهو بعيد عن التعصب ما وقف عند حدود مذهبه الفنى فى النقد ، وما وقف عند حدود خطته التى رسمها فى الموازنة بين الرجلين ، يورد لكل منهما ماله وما عليه .

— ١٠ —

فهل استطاع الآمدى أن يقف الى النهاية فى هذه الحدود المرسومة لا يخرج عليها ولاينحرف عنها ؟ لقد استراب المتقدمون فى هذا ، كالذى حكاه ياقوت فى سياق ترجمته للآمدى من قول ابى الفرج الببغا الشاعر : « كان الآمدى النحوى صاحب كتاب الموازنة يدعى هذه المبالغات على ابى تمام، ويجعلها استطرادا لعيبه ،

(١) ص ٤٠٧ — (٢) ص ٤١٠ — (٣) ص ١٢٣ ـ ١٢٤

اذا ضاق عليه المجال فى ذمه» . ثم قال فى سياق كلامه عن كتبه : «منها كتاب الموازنة بين البحترى وابى تمام فى عشرة أجزاء . وهو كتاب حسن ، وان كان قد عيب عليه فى مواضع منه ، ونسب الى الميل مع البحترى فيما أورده ، والتعصب على ابى تمام فيما ذكره . والناس بعد فيه على فرقتين : فرقة قالت برأيه حسب رأيهم فى البحترى وغلبة حبهم لشعره، وطائفة أسرفت فى التقبيح لتعصبه، فانه جد واجتهد فى طمس محاسن ابى تمام ، وتزيين مرذول البحترى . ولعمرى ان الأمر كذلك . وحسبك انه بلغ فى كتابه الى قول ابى تمام : (أصم بك الناعى وان كان أسمعا) ، وشرع فى اقامة البراهين على تزييف هذا الجوهر الثمين ، فتارة يقول : هو مسروق ، وتارة يقول : هو مرذول . ولا يحتاج المتعصب الى اكثر من ذلك . الى غير ذلك من تعصباته . ولو أنصف وقال فى كل واحد بقدر فضائله ، لكان فى محاسن البحترى كفاية عن التعصب بالوضع من أبى تمام »[1]

واذن فلم يغن عن الآمدى ما رسم من خطة منصفة ، وما أبدى فى كثير من مواضع كتابه من تحر للنصفة ، وقصد الى المعدلة ، من أن يصبح غرضا لتهمة التعصب، يدفعه الى « طمس محاسن ابى تمام، وتزيين مرذول البحترى »، يتهمه بها غير واحد من المتقدمين ، على النحو الذى رأينا فى كلام ياقوت ، وفى حكايته عن ابى الفرج الببغا . كما رماه بها من المتأخرين المعاصرين الأستاذ أحمد أمين فى تقديمه كتاب أخبار ابى تمام ، وعرضه للخصومة التى اثارها شعره ، والانقسام حول مذهبه ، اذ يقول : « وخلف هذا الانقسام ثروة جيدة من النقد الأدبى ، لم نظفر بمثلها فى أى عصر سابق ، فألف الآمدى كتابه ، الموازنة بين أبى تمام والبحترى يتعصب فيه للبحترى من وراء حجاب » .

فما هو الأصل فى هذه التهمة وأنى اتجهت اليه ؟ اتكون نوعا من التعصب على الآمدى من شيعة أبى تمام لما يبدو فى كتابه من ميل الى البحترى ؟ أم أن للأمر وجها غير هذا يمكن أن نلتمسه فى الكتاب ، وانه بالرغم من حرصه على أن يقف موقف الانصاف ويأخذ جانب الحيدة، وبالرغم من روح المعدلة التى تظهر بين الحين

(١) معجم الادباء ٨ : ٨٤

والحين فى كتابه ، فيما ينتصف به لأبى تمام من خصومه ، فانه لم يكن من الممكن أن يمضى فى هذا الى غايته ، فتلك — كما قلنا — غاية عسيرة كل العسر ، ولو حرص عليها كل الحرص .

وذلك فى الواقع هو ما يخيل الينا حين ننظر فى كتابه الموازنة نظرة مجتمعه تضم الاطراف المختلفة ، فنرى أن تهمة التعصب ليست تجنيا صرفا، كما يذهب الى القول بهذا الدكتور محمد مندور فى الفصل الذى كتبه عن هذا الكتاب[1]، بل ان لهذه التهمة ما يبررها ، فوق ما أشار اليه ياقوت من ذلك .

ذلك أن الآمدى لم يكد ينتهى من تصدير كتابه بخطة الحيدة التى رسمها، واقبل على ذلك الفصل الذى عقده لايراد احتجاج كل فريق ، حتى بدا واضحا أن الرجل لم يستطع أن يقمع ميله أو ينحى هواه فى هذه الخصومة ، فى هذا الوجه منها ، وذلك فى ادارتها وتنظيمها وتوجيهها ، فقد كان موقفه منها ، وان تحرز عن التصريح برأى فيها ، بادىء ذى بدء ، بعيدا عن أن يوصف بالحيدة المطلقة ، كما هو واجبه فى ادارة المناقشة ، بل كان موقف المتشيع لاصحاب البحترى ، المشجع لهم ، حين يعطى لهم الكلمة ، فيتركهم يقولون ما يشاءون ويبدءون ويعيدون ، المائل عن اصحاب ابى تمام الجائر عليهم، حين لا يأذن لهم فى عرض وجهة نظرهم الا بالجملة أو الجملتين، ثم يسارع فيعطى الكلمة لخصومهم : يمدون فى أطناب القول وتشقيق الكلام وافتراض الفروض والرد عليها، دون أن يأذن لأصحاب ابى تمام بمناقشتهم، فاذا اذن لهم ، وقلما يفعل ، فبكلمة موجزة يشيرون بها اشارة الى رأيهم . ثم يجعل للبحتريين الكلمة الأخيرة دائما . فهذا هو موقف الآمدى وقد أمسك بيده زمام المناظره يديرها وينظمها ، فاذا به فى ذلك يكشف عن نزعة التعصب التى يحاول سترها او قمعها .

ومن ذلك ما نراه، مثلا، فى الفصل الذى عقده للكلام فى « سرقات ابى تمام » ، اذ يحكى قصة دعبل الخزاعى فى سرقة ابى تمام معظم قصيدة مكنف فى رثاء ابى سلمى المزنى، مكتفيا بايرادها كانما هى قضية محكمة ، قد فرغ من القول فيها[2] . وليس الأمر كذلك . فهناك قول يحكيه الصولى فى كتابه « اخبار أبى تمام » فى هذه

(١) النقد المنهجى عند العرب ، ص ٧٨ ، ط مكتبة النهضة ، ١٩٤٨
(٢) الموازنة ص ٥٩ — ٦٠

المسألة . لا ريب عندنا فى أن الآمدى يعرفه، فكان من واجبه تحقيقا للنصفه التى اختطها وألزم نفسه بها أن يذكره الى جانب ما روى عن دعبل ، خاصة وانه ــ فيما يبدو ــ غير موافق لدعبل، اذ انه يرى (فى الفقرة السابقة) ان ابا تمام أخذ أحد ابياته تلك عن مريم بنت طارق ترثى اخاها ، أو عن جرير يرثى الوليد بن عبد الملك .

بل ان الآمدى وهو فى مكانه الذى اتخذه بين الخصمين لم يملك نفسه من أن يصرح برأيه ، وذلك حين قال صاحب البحترى : « انما صار جيد ابى تمام موصوفا لأنه يأتى فى تضاعيف الردىء الساقط . . . والمطبوع الذى هو مستوى الشعر قليل السقط لا يتبين جيده من سائر شعره بينونة شديدة ، ومن أجل ذلك صار جيد أبى تمام معلوما وعدده محصورا » ، فانه لم يلبث ان قال معقبا على ذلك مؤيدا له : « وهذا عندى أنا هو الصحيح، لأنى نظرت فى شعر ابى تمام والبحترى وتلقطت محاسنهما ، ثم تصفحت شعريهما بعد ذلك على مر الاوقات ، فما من مرة الا وانا الحق فى اختيار شعر البحترى ما لم اكن اخترته من قبل ، وما أعلم انى زدت فى اختيار شعر ابى تمام ثلاثين بيتا على ما كنت اخترته قديما »[1] .

وهكذا لم يكتف الآمدى بان يدير المناظرة ادارة تجعلها فى صالح أصحاب البحترى، حتى أخل فى صورة أخرى بحق المكان الذى اتخذه، فتدخل فى الخصومة مناصرا لهم مهاجما خصومهم بمثل هذه العبارة ، ولما يمض غير قليل على قوله فى ذلك التصدير : « فأما أنا فلست أفصح بتفضيل احدهما على الآخر » .

اليس فى مثل هذا المسلك الذى سلكه الآمدى فى هذه الخصومة ، وفى أول مجلس من مجالسها ، ما يبرر تهمة التعصب التى رمى بها ؟

وفى تضاعيف الكتاب تبدو هذه النزعة التى يكاتمها الآمدى ويقاومها جهده ، ولكنها لا تلبث أن تغلبه على أمره ، فتعلن عن نفسها على نحو ما، كما فى تعليقه على هذا البيت من شعر ابى تمام :

جارى اليه البين وصل خريدة ماشت اليه المطل مشى الأكبد

« . . . فيا معشر الشعراء والبلغاء ويا أهل العربية ، خبرونا كيف يجارى البين

(١) ص ٤٤

وصلها . وكيف تماشى هى مطلها ؟ الا تسمعون ؟! الا تضحكون ؟! »[1] . وهكذا نرى فى مثل هذه العبارات كيف ان الآمدى لم يغلب على أمره فى مكاتمته نزعته ضد ابى تمام وتحامله عليه ، فحسب ، ولكنه غلب أيضا على وقاره ورزانته وسمته، فترك هذه العبارات تنطلق منه ، ثم لم يلبث أن اردفها بعبارة قالها ابن المعتز فى بيت لمسلم الخاسر ، اذ يقول عنه : « هذا ردىء كأنه من شعر ابى تمام الطائى » .

الى غير ذلك مما حمل ياقوتا وغيره على اتهام الآمدى بالتعصب على ابى تمام فى كتاب الموازنة. وربما لم يقصد الآمدى الى شىء من هذا، ولكنها ــ على كل حال ــ الطبيعة التى لا تغالب مهما تحرز المتحرز وتحصن .

— ١١ —

وبعد فما هو منهج الآمدى فى نقده ، وما هى خصائصه وسماته البارزة ، كما تبدو فى هذا الكتاب ؟

يبدو أن الأصل الأول فى ذلك هو تلك النزعة الأدبية التى تنزع بالآمدى ــ كما قلنا ــ الى ايثار طريقة الأوائل والتزام عمود الشعر المعروف ، وبذلك كان يقوم نقده على تجريح ما خرج على هذا الاصل ، سواء فى المعانى الشعرية أم فى الصياغة ، فالتكلف والتعقيد والاسراف فى توليد المعانى والمبالغة فى الوصف والاكثار من التجنيس والطباق والقصد اليهما من العيوب التى اسقطت شعر ابى تمام عند الآمدى ، لأنها مجانبة لمذهب الأوائل وخروج عليه. فأما حين يقول مثلا :

أرامة ، كنت مألف كل ريم لو استمتعت بالأنس القديم
أدار الأنس ، حسنك التصابى الى ، فصرت جنات النعيم
لئن اصبحت ميدان السوافى لقد أصبحت ميدان الهموم
ومما ضرم البرحاء أنى شكوت ، فما شكوت الى رحيم
أظن الدمع فى خدى سيبقى رسوما من بكائى فى الرسوم

فمثل هذا عند الآمدى من جيد شعره ، لأن « هذا من أسهل الكلام وأسلس نظمه ، ومن أبعد قول من التكلف والتعسف ، وأشبهه بكلام المطبوعين وأهل

(١) ص ٢٤٨

البلاغة » . فالسهولة والسلاسة والبعد عن التكلف والتعسف ، وشبهه بكلام المطبوعين هو الذى اتاح لهذا الشعر ان يكون من جيد شعر ابى تمام . ولكن الآمدى يلحظ فى البيت الثانى شيئا من الاسراف ، فيقف عنده بين الاعجاب بما فيه من معنى لم يستطع أن ينكر حسنه ، والانكار لما فيه مع هذا الحسن من مبالغة ، وفى المبالغة خروج على مذهب الأوائل فيقول : « وقوله (فصرت جنات النعيم) معنى حسن ، ولكن فيه اسراف ان يجعل دارا — خلت من أهلها — دار بؤس ، — وهو بالك فيها — جنات نعيم » [1]

بل ان الآمدى لا يقف فى ايثار مذهب الأوائل وبناء نقده الأدبى عليه عند الجرى مع الطبع ومجانبة التكلف ، بل يرى فوق هذا أن يلتزم الشاعر عادة العرب وعرفهم السائد فى اعتبار الأشياء والتعبير عن المعانى ، فحين يقول ابو تمام ، من قصيدته فى مدح ابن ابى دؤاد :

ظعنوا ، فكان بكاى حولا بعدهم ثم ارعويت ، وذاك حكم لبيد
اجدر بجمرة لوعة اطفاؤها بالدمع أن تزداد طول وقود

فانه يعتبر من اخطائه أن يخالف عن سنة العرب فى اعتبار البكاء مخففا من لوعة الحزن ، وقد جرى بذلك العرف عندهم ، ومضى على السنة شعرائهم ومن سلك سبيلهم . وذلك اذ يقول فى التعليق على هذين البيتين : « وهذا خلاف ما عليه العرب ، وضد ما يعرف من معانيها ، لأن من شأن الدمع أن يطفىء الغليل ، ويبرد مرارة الحزن ، ويزيل شدة الوجد ، ويعقب الراحة ، وهو فى اشعارهم كثير موجود ينحى به هذا النحو من المعنى ، فمن ذلك قول امرىء القيس : . . . وقول ذى الرمة : . . . وقال الفرزدق : . . . وهو كثير فى اشعارهم ، ما عدل أحد منهم عن هذا المعنى ، وكذلك المتأخرون هذا السبيل سلكوا . . . فلو كان اقتصر على هذا المعنى الذى جرت به العادة فى وصف الدمع لكان المذهب المستقيم ، ولكنه أحب الاغراب ، فخرج الى ما لا يعرف فى كلام العرب ، ولا مذاهب سائر الأمم » [2] . فالأصل فى تخطئه هذا الشعر انه « خلاف ما عليه العرب وضد ما يعرف من معانيها »،

(١) ص ٤٤٦ — ٤٤٧ — (٢) ص ١٨٥ — ١٨٨

أما ما جاء بعد هذا فانما هو لتفسير ما عليه العرب وتأييده ، كما هو ظاهر فى سياق العبارة .

ومن ذلك نقده هذا البيت من شعر ابى تمام :

سأحمد نصرا ما حييت ، وانني لأعلم أن قد جل نصر عن الحمد

ووجه العيب فى هذا البيت عنده أن رفع الممدوح عن الحمد مذهب لا تعرفه العرب ، اذ « ما فيهم من رفع أحدا عن أن يحمد ، ولا من استقل الحمد للممدوح »، ثم مضى يستشهد لهذا من شعر زهير والأعشى وغيرهما ، ثم قال : « فهذه هى الطريقة المعروفة فى كلام العرب » [1]

ومن هذا — فيما نحسب — كان مذهبه اللغوى : الا يتجاوز باستعمال اللفظ استعمال العرب له ، فلا قياس فى اللغة ولا توسع ، فذلك شىء لا نملكه ، ولا يجوز لشاعر يذهب بشعره المذهب العربى أن يخرج على استعمال العرب ، قياسا أو توسعا . فاذا استعمل ابو تمام كلمة « الجاهد » فى قوله :

فافزع الى ذخر الشؤن وعذبه فالدمع يذهب بعض جهد الجاهد

فى معنى المجهود ، كان ذلك عنده خطأ لا مساغ له ، انما الوجه فى تأويل قوله : « بعض جهد الجاهد » ، « بعض جهد الحزن الجاهد ، أى الحزن الذى جهدك ، فهو الجاهد لك » ، فلكى تصح العبارة على مذهبه فى الاستعمال اللغوى يجب أن تكون كلمة « الجاهد » وصفا للحزن لا وصفا للمحزون بالرغم من السياق ، ومن المعنى الذى أراد الشاعر أن يعبر عنه ، ويصور به ألمه وجهده ، فى توديع صديقه على بن الجهم ، والا فقد أخطأ الشاعر فى وضع كلمة الجاهد موضع المجهود . ثم يقول : « وقد جاء أيضا فاعل بمعنى مفعول ، قالوا : عيشة راضية ، بمعنى مرضية، وملح باصر ، وانما هو مبصر فيه . وأشباه هذا كثيرة معروفة ، ولكن ليس فى كل حال يقال ، وانما ينبغى ان ينتهى فى اللغة الى حيث انتهوا ، ولا يتعدى الى غيره ، فان اللغة لا يقاس عليها »[2]

فذلك هو مذهبه فى هذه المسألة ، والذى يعنينا هنا هو تقريره وتقرير الصلة

(١) ص ١٨٣ — ١٨٤ — (٢) ص ٢٠٢

بينه وبين ذلك الأصل الأول فى شخصيته الادبية . وهو ــ كما قلنا ــ ايثار طريقة الأوائل ، فهو فرع من أصل .

واذا كان التزمت قد بلغ من الآمدى هذا المبلغ فى الاستعمال اللغوى ، حتى ما يجيز القياس فيها ، وان كان قياس صيغة على صيغة كما فى اطلاق صيغة فاعل على مفعول ، فهو من باب أولى يمنع أى توسع فى الاطلاق اللغوى ، ويوجب الدقة المطلقة فى التزام المعانى التى جاءت عن العرب . فاذا وصف ابو تمام الفرس بالصلف والتلهوق ، فى قوله :

ما مقرب يختال فى أشطانه ... ماكان من صلف به وتلهوق

أخذ عليه انه وضع هاتين اللفظتين فى غير موضعهما الحق الذى نعته العرب لهما، فقد استعمل الصلف فى معنى التيه والكبر ، « وهذا مذهب العامة ، فأما العرب فانها لا تستعملها على هذا المعنى ، وانما تقول : « قد صلفت المرأة عند زوجها اذا لم تحظ عنده ، وصلف الرجل كذلك اذا كانت زوجته تكرهه . . . والصلف الذى لا خير عنده . . . فهذا معنى الصلف فى كلامهم ، وعلى هذا قد ذم ابو تمام الفرس من حيث أراد أن يمدحه » . وكذلك الأمر فى التلهوق ، فهى ــ كما يقول ــ « لطف المداراة والحيلة بالقول وغيره ، حتى يبلغ الحاجة »[1]

وكما يدل هذا على مذهب الآمدى اللغوى ، فانه يدل من ناحية أخرى على دقته وقوة ملاحظته وحسه اللغوى اليقظ المتنبه ، وهذه أيضا من صفات الآمدى الظاهرة ، نراها فى غير موضع من كتابه ، وانه ليبلغ فى بعضها غاية بعيدة تكشف عن بصيرة لماحة وذوق مرهف وحس دقيق بمواقع الكلام واستعمال الالفاظ فى مواضعها ، كالذى نرى فى نقده استعمال ابى تمام لكلمة « العمر » فى هذا البيت:

مالا مرىء خاض فى بحر الهوى عمر ... الا وللبين فيه السهل والجلد

اذ يقول : « وهذا عندى خطأ ان اراد بالعمر مدة الحياة لانه اسم واحد للمدة بأسرها ، فهو لا يتبعض فيقال لكل جزء منه عمر . كما يقال : ما لزيد رأس الا

(١) ص ٢١٩، وقد جاءت كلمة الصلف والتلهوق مقترنتين فى شعر للكميت فى مخلد بن يزيد المهلب ، قال :

أجزيهم يد مخلد وجزاؤها ... عندى بلا صلف ولا بتلهوق

(اللسان ٢ : ٢١٩)وكأن ابا تمام انما صدر عن هذا البيت .

وفيه شجة أو ضربة ، وماله لسان الا وهو ذرب فصيح ، لذلك لا يقال : ماله عمر الا وهو قصير . وانما يسوغ هذا فيما هو فوق الواحد ، مثل ان تقول : ماله ضلع الا مكسورة، وماله يد الا وفيها اثر، ولا رجل الا وفيها حنف » الى آخر هذا الفصل[1] الذى يدل دلالة واضحة على يقظة الآمدى ودقته فى وضع الالفاظ مواضعها، كما يدل على وضوح ذهنه وقدرته على الابانة وابراز الدقائق والفروق فى العبارات والتراكيب .

وما دمنا فى الكلام عن دقة الآمدى ووجوهها ومظاهرها فلا يفوتنا الاشارة الى لون آخر منها غير ما رأينا من دقته فى استعمال الالفاظ فى حاق معانيها ، ودقته فى وضعها مواضعها ، وهو الدقة فى ايراد المعنى وتأليفه وملاحظة ما قد يتخلله من خلل أو يعرض له من فساد . ونكتفى فى بيان هذه الناحية عنده بهذا المثل ، اذ يعلق على هذا البيت من شعر ابى تمام وينقده ، وهو فى صفة الخمر :

بقاعية ، تجرى علينا كؤسها ... فتبدى الذى نخفى وتخفى الذى نبدى

وسنرى أن تعليقه عليه يدل على فهم دقيق وفطنة ثاقبة اذ يفسر صنيع الخمر الذى ذكره ابو تمام، فيقول : « ذهب فى هذا الى أن الخمر تخفى الذى نبديه فى حال الصحو من الحلم والوقار والكف عن الهزل واللعب ، و « تبدى الذى نخفى » أى الذى نعتقده ونكتمه من ضد ذلك كله ، لأنه فى الطبيعة والغريزة ، والذى كنا نظهره انما هو تصنع وتكلف » ، ويمضى يوضح هذا بالأمثال يضربها ، وهو تفسير دقيق بصير كما نرى ، ولكنه انما يسوق هذا التفسير ليقرر شيئا آخر يكشف ما فى عبارة ابى تمام ، من فساد ، ذلك أن « كل شىء يظهره الانسان وليس فى اعتقاده ولا نيته فان الذى يضمره ويكتمه فى نفسه فهو ضده ، فاذا اظهر السكر اعتقاد المعتقد الذى هو الصحيح، فان ضده مما كان يتجمل باظهاره يبطل ويتلاشى»، واذن فهناك عمل واحد لا عملان ، فما بال أبى تمام يقول فى هذا البيت : « فتبدى الذى نخفى وتخفى الذى نبدى » أما الشطر الأول من قول ابى تمام : « فتبدى الذى نخفى » فصحيح ، وأما الثانى ففاسد ، « لأن تخفى معناه تكتم وتستر ، والذى قد أبطلته وأزلته لا يجوز أن يعبر عنه بانك أخفيته ولا كتمته »[2]

(١) ص ١٩٩ ــ ٢٠١ ــ (٢) ص ٢٢٢ ــ ٢٢٣

وحسبنا هذا فى بيان دقة حس الآمدى وشدة فطانته فى تناول الآثار الأدبية وتحليلها ونقدها .

— ١٢ —

وتمد الآمدى فى نقده المبنى على ذلك الأصل والذاهب مع تلك النزعة ثقافة أدبية شاملة ، وذاكرة قوية ماثلة ، وقدرة على استحضار الشواهد والأمثلة ، وقد أتاحت له تلك الثقافة الادبية الاحاطة بصور الحياة العربية ومثلها ، ومكنت له من التغلغل فى دقائق تلك الحياة ، وبذلك كان كثيرا ما يكون نقده لهذا البيت أو ذاك فصلا ممتعا ودراسة عميقة مستقصية لهذه الصورة أو تلك من صور الحياة العربية كما تمثلها الآثار الادبية الماثلة فى ذاكرته ، كما فى نقده لهذا البيت من شعر البحترى:

قف العيس، قد أدنى خطاها كلالها وسل دار سعدى، ان شفاك سؤالها

فقد اعتمد فى نقد هذا البيت ، فى قراءته ، على ثقافته الادبية الواسعة ومعرفته الدقيقة بمثل الحياة العربية [1]

ومثل هذا أو قريب من دلالته هذه كثير فى كتابه ، وان لم يبسط القول فيه كما بسط القول فى هذا الفصل ، من ذلك ما أورده فى نقد بيت لابى تمام يذكر فيه الخيل، ويصورها فى صورة تنكرها المعرفة العربية والثقافة الادبية ، وذلك اذ يقول :

فى مكر تلوكها الحرب فيه وهى مقورة تلوك الشكيما

فقد جعل الخيل تلوك الشكيم فى الحرب، وهذا فيما نبه عليه الآمدى خطأ «لأن الخيل لا تلوك الشكيم فى المكر وحومة الحرب ، وانما تفعل ذلك واقفة لا مكر لها . . . وانما طرح ابا تمام فى هذا قلة خبره بأمر الخيل. الاترى الى قول النابغة :

خيل صيام ، وخيل غير صائمة تحت العجاج ، وأخرى تعلك اللجما

والصيام ههنا القيام. أى خيل واقفة مستغنى عنها لكثرة خيلهم فهى واقفة، وخيل تحت العجاج فى الحرب، وخيل تعلك اللجم ، قد أسرجت والجمت واعدت للحرب» [2]

(١) ص ٤٠٠ — ٤٠٥ والقراءة الاخرى «اوفى خطاها» — (٢) ص ٢١٦ — ٢١٧

ثم مضى الآمدى بعد ذلك يعرض بعض الشواهد فى هذا ، ويثير بعض التفاصيل والصور .

ومن ذلك أيضا ما نقد به بيتا للبحترى يصف فيه فرسا بأنه يسحب ذيله ، وهو قوله :

ذنب كما سحب الرداء ، يذب عن عرف ، وعرف كالقناع المسبل

يقول الآمدى : « هذا خطأ من الوصف ، لأن ذنب الفرس اذا مس الأرض كان عيبا ، فكيف اذا سحبه ، وانما الممدوح من الاذناب ما قرب من الأرض ولم يمسها ، كما قال امرؤ القيس :

بضافه فويق الأرض ليس بأعزل

فقال فوق الأرض بقليل » . ولكن الآمدى لا يقف من نقده البيت والتعليق عليه عند هذا الحد ، فقد أراد ان يستطرد الى تحرير القول فيما وجه من هذا القبيل الى امرىء القيس فى بيت آخر له ، زعم بعض النقاد ، وسجل هذا الزعم ابن المعتز فى كتاب له ، انه أخطأ فيه ، اذ وصف ذنب الفرس بمثل ما جاء فى بيت ابى تمام ، حين جعله « مثل ذيل العروس » ، فأنكر الآمدى هذا المأخذ وناقشه ، ووجه وصف امرىء القيس التوجيه الذى يستند الى دقة فهمه ، كما يستند الى شواهد من الأدب القديم [1]

وهذا ولا ريب من آثار دراسته الأدبية الواسعة التى بدأها فى البصرة ، على النحو الذى رأينا وقد جعلت تنمو وتتسع ، كما انضجتها مشاركته المستمرة فى حركة النقد الأدبى ، قراءة ودراسة ومناظرة وتأليفا .

فاما دراساته العلمية التى اتاحها له ، على وجه واسع منظم، مقامه فى بغداد واخذه عن شيوخها ، فمن الطبيعى أن يكون لها هى أيضا أثرها فى نقده ، كما نراه فى هذا الكتاب، ومن مظاهرها فيه ما يرجع الى الدراسة النحوية التى قصد بغداد لها، ومنها ما يتصل بألوان المعرفة الأخرى .

(١) ص ٣٤٨ — ٣٤٩

أما معارفه النحوية فقد استطاع أن يستخدمها استخداما متصلا بالناحية الادبية ، ملتبسا بالذوق الفنى ، على النحو الذى نراه فى غير موضع من الكتاب ، مما هو جدير أن يخص ببحث على حدة، وانما نكتفى هنا بالاشارة الى بعض هذه المواضع ، ككلامه عن الوصف بالمصدر فى سياق نقده لبيت أبى تمام :

وليست بالعوان العنس عندى ولا هى منك بالبكر الكعاب

وافتراض انه « اراد بالعنس مصدر عنست المرأة تعنس عنسا وعنوسا ، فجعل المصدر وهو عنس وصفا للعوان»، وفى مناقشة هذا القول استطاع الآمدى أن يحقق القول فى مسألة الوصف والمصدر ، ويفرق بين ما يجوز من ذلك وما لا يجوز فى وضوح وجلاء [1] . ومن ذلك حديثه عن قد وهل فى سياق نقده لهذا البيت من شعر أبى تمام :

رضيت، وهل أرضى اذا كان مسخطى من الأمر ما فيه رضى من له الأمر

وادعاء بعض المدافعين عن ابى تمام «ان هل هنا بمعنى قد، وانما أراد الطائى : رضيت وقد أرضى . كما قال الله تعالى : (هل اتى على الانسان حين من الدهر)، أى قد أتى »[2]

وفى هذه الابحاث النحوية التى يعرض لها الآمدى فى كتابه تتبدى لنا صورة جديدة من النحو ، اذ تجعله دراسة للأساليب وفروق ما بينها . وتبينا لخصائص الجمل ودقائقها ، فى أسلوب ناصع غاية النصوع . وليس يتسع هذا البحث ــ كما قلنا ــ لدراسة هذه الناحية فى كتاب الموازنة دراسة مستفيضة فلنجتزىء بهذه اللمحات السريعة اليها ، حتى يتاح لها أن تظفر ببحث مستقل جدير بها .

وكذلك شأننا فى النواحى الأخرى من دراساته التى اتاحتها بغداد له ، مما يتردد صداها فى كتابه ، وخاصة الناحية الفلسفية ، فلا نملك هنا الا الاشارة اليها ، والى انا لا ندرى على وجه الدقة مدى اتصاله بها ، فانما هى هذه المحاولة التى أراد فيها أن يطبق بعض المعارف والمقررات الفلسفية على درس الشعر ، كما صنع قدامة من قبل ، فاستعار من الفلسفة الكلام عن العلل الأربع : الهيولانية ، والصورية ،

(١) ص ١٥٢ ــ ١٥٣ ــ (٢) ص ١٨٨ ــ ١٩١

والفاعلية ، والتمامية . وعقد لها هذا الفصل الذى يبدو شذوذا فى كتابه ، يحمل طابعا مختلفا عن طابعه العام[1]. ولكن مهما يكن من أمره فانما ذلك مظهر من مظاهر الاستجابة لروح العصر ، ونوع من التجاوب معها ، اذ كان ذلك النزوع الفلسفى يحتل مكانا ظاهرا من تلك الروح، فى البيئات العقلية جميعا. وحسبنا لنتبين ذلك أن نراه ينسب هذه المعارف الفلسفية الى شيوخ أهل العلم بالشعر ، فيقول فى صدر هذا الفصل : « وانا أجمع لك معانى هذا الباب فى كلمات سمعتها من شيوخ أهل العلم بالشعر » .

طه الحاجرى

(١) ص ٣٩٣ ــ ٣٩٥